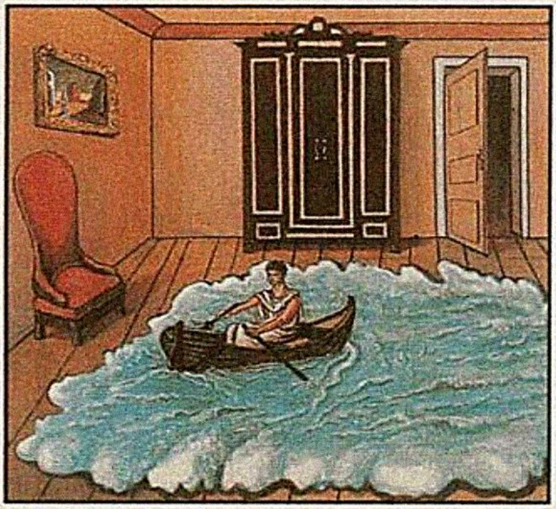
ميلان كونديرا

الجهل

رواية



علي مولا

ترجمة: رفعت عطفة

ميلان كونديرا

الجهل

رواية

ترجمة: رفعت عطفة

* ميلان كونديرا
* الجهل
* ترجمة رفعت عطفة

* الطبعة الأولى 2000
* موافقة وزارة الإعلام رقم 49256 تاريخ 2000/9/19
* الناشر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق ☎ 3321053
* الإشراف الفني : د. مجد حيدر
* الإخراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التوزيع : دار ورد ☎ 3321053

عنوان الكتاب الأصلي:

La Ignorancia

1

ـ ماذا تفعلين هنا حتى الآن؟ ـ لم تكن نبرة صوتها تنطوي على نيّة سيّئة، لكنّها لم تكن لطيفة أيضاً؛ وكان صبر سيلفي ينفد.

ـ وأين تريدنني أن أكون؟ ـ سألت إرِنا.

ـ في بلدكِ.

ـ وأنا ألست في بلدي؟

طبعاً لم تكن تريد أن تطردها من فرنسا، ولا أن توحي إليها بأنّها غريبة غير مرغوب بها.

ـ فهمتِ عليّ!

ـ نعم، أعرف، لكن هل نسيت أنّ عملي وبيتي وابنتيَّ هنا؟

ـ اسمعيني، أعرفُ غوستاف. سيعمل كلّ ما هو ضروري كي تستطيعي العودة إلى بلدك. أما بالنسبة لابنتيك فدعيني من هذه القصّة، صارت لهما حياتهما الخاصّة! يا إلهي يا إرِنا، ما يجري في بلدك مذهل جدّاً! في حالات كهذه دائماً تنتهي الأمور بالتسوية.

ـ لكنّ المسألةَ، يا سيلفي، لا تتعلّق بالأمور العملية، بعملي وبيتي فقط. فأنا أعيش هنا منذُ عشرين سنة. حياتي هنا.

ـ في بلدكِ يعيش الناسُ ثورة!

قالت ذلك بنبرة لا تسمح بالردّ. صمتت بعدها. وبصمتها أرادت أن تقول لإرِنا إنّه يجب عدم الهرب أمام الأحداث الكبرى.

ـ لكنّني لو عدتُ إلى بلدي، لن نرى بعضنا أبداً ـ قالت إرِنا كي تضع صديقتها في موقفٍ حرج.

فعلت هذه الديماغوجية فعلها. رقّ صوت سيلفي.

ـ لكنّني أُفكّرُ بالذهاب لرؤيتكِ، يا عزيزتي، أعدُكِ، أعِدُكِ!

كانتا جالستين الكتف إلى الكتف منذ برهة طويلة أمام فنجاني قهوة فارغين. رأت إرِنا دموعَ تأثُّرٍ في عيني سيلفي، انحنت فوقها وضغطت على يدِها:

ـ ستكونُ عودةً عظيمة ـ وكرّرت ـ ستكونُ عودةً عظيمة.

وبهذا التكرار اكتسبت الكلماتُ من القوّة ما جعل إرِنا تراها في قرارة نفسها مكتوبة بأحرفٍ كبيرة: عودة عظيمة. لم تقاوم بعدها: بقيت أسيرة صورٍ سرعان ما انبثقت، من قراءات قديمة وأفلام سينمائيّة، من ذاكرتها وربّما من ذاكرة أسلافها: الإبن المفقود الذي يعود ويلتقي بأمّه العجوز؛ الرجلُ الذي يعودُ إلى حبيبته التي اقتلعه منها قدرٌ ضارٍ؛ بيتُ مسقطِ الرأس الذي يحمله كلُّ شخصٍ في داخله؛ الطريق المعاد اكتشافه والذي بقيت فيه آثار خطوات الطفولة الضائعة. عوليس التائه الذي يعودُ إلى جزيرته بعد أن تاه لسنواتٍ، العودة، العودة، سحر العودة العظيم.

2

«العودة» في اليونانية تعني نوستوس nostos. ألغوس Algos تعني «معاناة». النوستالجيا (الحنين) هي إذن «المعاناة» الناتجة عن الرغبة غير المشبعة بالعودة. يستطيع معظم الأوروبيين أن يستخدموا لهذه الفكرة الأساسية كلمةً من أصلٍ يونانيّ (نوستالجيا

«nostalgia»)، إضافة إلى كلماتٍ أخرى ذات أصل قوميّ: فنحن نقول في الإسبانية «أنيورانثا» «añoranza» وفي البرتغالية ساوداد. وفي كلّ لغة تملك هذه الكلمات صبغة معنوية مختلفة. وهي عادة ما تعني الحزنَ الناتِج عن استحالة عودة المرء إلى بلده الأصلي. الحنينُ إلى مسقط الرأس. الحنينُ إلى المنزل. وهي في الإنكليزية «homesickness» وفي الألمانية «Heimweh» وفي الهولندية heimwee. لكنّها اختزال مكانّي لهذا المفهوم العظيم. الإيسلندية، إحدى أقدمِ اللغات الأوروبية، تُميِّزُ بوضوحٍ بين مفردتين: Sõknudur : حنين بالمعنى العام وheimfra: الحنينُ إلى مسقط الرأس. للتشيكيين، إلى جانب حنين المأخوذة عن اليونانية، اسمهم الخاص بهم بالنسبة إلى المفهوم وهو stesk وفعلهم الخاص بهم أيضاً؛ إحدى جمل الحب الأكثر تأثيراً في التشيكيّة هي styska se mi po tobe : «أشتاق إليك، ما عدت أقوى على تحمّل ألم الفراق». «añoranza» في الإسبانية مشتقة من الفعل anorar المأخوذ بدوره من اللفظة القطلانيّة enyorar المشتقة بدورها من الفعل اللاتيني ignorare: (ignorar جهل الشيء) وعلى ضوء هذا الاشتقاق يتكشّف لنا الحنين على أنّه ألم الجهل. أنت بعيد، ولا أعلم عنك شيئاً. بلدي بعيد ولا أعرف ماذا يجري فيه. تعاني بعضُ اللغات من بعض الصعوبة بالنسبة للحنين: فالفرنسيون لا يستطيعون أن يُعبِّروا عنه إلا من خلال الكلمة ذات الأصل اليوناني (nostalgie) ، وليس لديهم فعل؛ يستطيعون أن يقولوا : je m'ennuie de toi (التي تُعادل «أشتاقُ إليك» أو «افتقد إليك») لكنّ هذا التعبير باهت، بارِد، وفي كلّ الأحوال خفيف أكثر من اللازم بالنسبة لمشاعر جليلة. أمّا الألمان فقليلاً ما يستخدمون كلمة nostalgia بشكلها اليوناني ويُفضِّلون أن يقولوا sehnsucht الرغبة بما هو مفقود أو غائب، لكنّ sehnsucht يمكن أن تُشير إلى ما كان، كما إلى ما لم يكن قط (مُغامَرة جديدة) وبالتالي فليس من الضروريّ أن تتضمّنَ فكرةَ nostos؛

ولتضمين الهوس بالعودة في sehnsucht لا بدّ من إضافة متمِّم: Senhsucht nach der Vergangenheit, nach der verlorenen Kindheit, أو nach der ersten liebe (رغبة بالماضي، بالطفولة المفقودة أو بالحب الأوّل.)

الأوديسة، الملحمة المؤسِّسة للحنين، نشأت في منابع الثقافة اليونانية القديمة. لنؤكّد على ذلك: عوليس أكبر مغامِر على مرّ العصور، هو أيضاً أكبر مشتاق. غادر (ليس راضياً تماماً) إلى حرب طروادة التي بقي فيها عشرة أعوام. بعدها سارع بالعودة إلى مسقط رأسه إيثاكا، لكنّ دسائس الآلهة أطالت رحلته، في البداية ثلاثة أعوام مليئة بالأحداث المذهلة، ثمّ سبعة أعوام أخرى أمضاها بصفته رهينة وعاشِقاً إلى جانب الحوريّة كاليبسو، التي كانت مولّهة جدّاً به إلى حدّ أنّها لم تكن تتركه يُغادِر الجزيرة.

في نهاية النشيد الخامِس من الأوديسة تقريباً يقولُ عوليس: «لاتأخذيه مأخذَ سوءٍ، أيّتها الربّةُ المهيبة، فأنا أعلمُ جيداً كم هي بِنِلوبّ أدنى منك جمالاً ونبل قوام (...) لكنّني رغم كلّ ذلك أتَلَهفُ، لهفةً أعيشها كل يوم، كي أصل إلى بيتي وأتمتّعَ بنور العودة». ويتابع هوميروس: «قال هذا فراحت الشمس تغيب والظلام يحلّ ومضى الإثنان إلى عمق الكهف المقعّر، وفي الليل تمتعا بالحبّ، الواحدُ بجانب الآخر».

لا شيء يمكن أن يُقارَن بحياة المهاجِرة المسكينة التي عاشتها إرِنا زمناً طويلاً. فعوليس عاش إلى جانب كاليبسو حياة حلوة حقيقيّة، حياةً سهلةً، حياة فرحة. ومع ذلك بين الحياة الحلوة في الغربة وخطر العودة إلى المنزل اختار العودة. فضّل تمجيد المعلوم (العودة) على سبر المجهول (المغامرة) الممتع. وفضّل النهاية (ذلك أنّ العودة هي المصالحة مع ما في الحياة من نهائيٍّ) على اللانهائي (ذلك أنّ المغامَرة لا تطمح أبداً لامتلاك نهاية).

وضع بحّارة فياشيا عوليس الملفوفَ بالملاحف على شاطئ إيثاكا عند جذع شجرة زيتون ومضوا، دون أن يُوقِظوه. هكذا انتهت الرحلةُ. كان نائماً منهكاً. حين استيقظ لم يعرف أين هو. لكنّ أثينا أزاحت الغشاوة عن عينيه وغمرته بالنشوة؛ نشوة العودة الكبرى؛ نشوة المعلوم؛ الموسيقى التي هزّت الهواء بين الأرض والسماء: رأى الخليج الذي كان يعرفه منذ الطفولة، الجبلين اللذين يحيطان به وداعب شجرة الزيتون القديمة كي يتأكّد من أنّها ما زالت هي ذاتها التي تركها منذ عشرين عاماً.

في عام 1950 ، حين كان قد مضى على أرنولد شونبِرغ أربعة عشر عاماً وهو يعيش في الولايات المتحدة، صاغ له صحافي أمريكي شماليّ أسئلة ساذجة بنيّةٍ سيئّة: هل صحيح أنّ الهجرةَ تُضعِفُ القوّة الخلاّقة عند الفنّانين، وأنّ إلهامه ينفد ما أن تتوقّف جذور بلده الأصلي عن تغذيته؟

تصوّروا! بعد خمس سنواتٍ من الهولوكوست فقط، لا يغفرُ الصحافيّ الأمريكي الشماليّ لـ شونبِرغ عدم تعلّقهُ بأرضه التي وأمام عينيه انطلق فيها رعب الرعب! لكنْ لا يمكن تفادي ذلك. فقد مجّد هوميروس الحنين بإكليل غارٍ وأقام بذلك هيكليّةً أخلاقيّة للمشاعر. وهنا تشغل بِنِلوبّ مكاناً عالياً يتخطّى كثيراً كاليبسو.

كاليبسو، آه، يا كاليبسو! كثيراً ما أفكّر بها. أحبّت عوليس. عاشا معاً سبعةَ أعوامٍ. لا نعلم كم شارك عوليس بِنِلوبّ سريرها، لكن بالتأكيد لم يكن لزمن طويل. ومع ذلك عادةً ما يُمجّدُ ألم بِنِلوبّ ويُحتَقر نحيب كاليبسو.

3

بضربات فأس تَسِمُ التواريخ العظمى قرنَنا بجروح عميقة.

حرب 1914 الأولى، الثانية، ثمّ الثالثة والأطول، المسماة بالباردة، والتي انتهت في العام 1989 مع اختفاء الشيوعية. إضافة إلى هذه التواريخ العظمى التي تخصُّ الأوروبيين جميعاً هناك أخرى ذات أهميّة ثانوية تُحدّد مصير بعضِ الأُمم: 1936 عام الحرب الأهلية الإسبانية؛ 1948 عام تمرّد اليوغسلافيين ضدّ ستالين؛ 1991 العام الذي راح الجميع يقتلون فيه بعضهم بعضاً. السكندينافيون، والهولنديون والإنكليز، يتمتّعون بميزة أنّهم لم يملكوا أيَّ تاريخٍ مهمّ بعد عام 1945 ، وهو ما سمح لهم بأن يعيشوا نصف قرن مُلغَى بشكلٍ لذيذ.

في هذا القرن يزدهي تاريخ التشيكيين بجمال رياضيّ ملحوظ، نظراً لتكرار الرقم عشرين ثلاث مرّات. ففي عام 1918 وبعد قرونٍ طويلة حصلوا على دولتهم المستقلّة وفي العام 1938 فقدوها.

في العام 1948 دشّنت الثورة الشيوعية المستوردة من موسكو بالرعب، العشرينيةَ الثانية التي انتهت في العام 1968 حين ثارت ثائرة الروس الذين رأوا استقلالهم العتيّ فغزوا البلدَ بنصف مليون جنديّ.

أقام المحتلون بكلّ ثقلهم في السلطة عام 1969 ، وذهبوا في العام 1989 بنعومة وتهذيبٍ دون تَوَقُّعٍ من أحد كما فعلت جميع الأنظمة الشيوعية الأوروبيّة في ذلك الوقت: إنها العشرينية الثالثة.

في قرننا هذا فقط تمكّنت التواريخُ الحاسمة بنهم مماثل من كلِّ شخصٍ. من المُحال أن نفهم وجود إرِنا في فرنسا، قبل أن نُحلِّل التواريخ. في الخمسينات والستينات لم يكن المهاجرون من البلدان الشيوعية يلقون تقديراً كبيراً، فالشر الحقيقيّ الوحيد بالنسبة إلى الفرنسيين كان آنذاك الفاشيّة: هِتلر، موسوليني، إسبانيا فرانكو، دكتاتوريات أمريكا اللاتينية. فقط نحوَ نهايةِ

الستينات وخلال السبعينات قرّروا أن يعتبروا، شيئاً فشيئاً، الشيوعيةَ شرّاً، وإن كان، لنقُلْ، بدرجة أدنى، الشر رقم اثنين. في تلك الفترة 1969 هاجرت إرِنا وزوجها إلى فرنسا. وفهما على الفور أنّ الكارثة التي حلّت ببلدهم مقارنة بالرقم واحد لم تكن دامية بحيث تُدهش أصدقاءهم الجدد. ولكي يفهموهما اعتادا أن يقولا لهم على وجه التقريب:

«مهما كانت الدكتاتوريّة مريعة فإنّها تختفي باختفاء الدكتاتور، وهكذا يستطيع الناس أن يستمروا ولديهم أمل. على العكس من الشيوعية المدعومة بالحضارة الروسية الهائلة التي هي بالنسبة إلى بلد مثل بولونيا أو هنغاريا (كيلا نتكلّم عن أستونيا!) نفق لا نهاية له. الدكتاتوريون فانون، روسيا خالدة. مصيبة البلدان التي جئنا منها تقوم على الانعدام الكامل للأمل».

هكذا كانا يُعبّران بأمانة عن تفكيرهما وكانت إرِنا تذكرُ، كي تدعمه، رباعيةَ جان سكاسِل، شاعر اللحظة التشيكي: يتحدّث عن الحزن الذي يحيط به؛ كان بودّه أن يُزيحه، أن يحمله بعيداً جدّاً، أن يبني معه بيتاً، يحبس نفسه فيه ثلاثمئة سنة، فلا يفتح الباب لأحد خلال هذه السنين الثلاثمئة. لا يفتح الباب لأحد!

ثلاثمئة سنة؟ كتب سكاسِل هذه الأبيات في الستينات ومات في العام 1989 ، في تشرين الأوّل، وبالتالي قبل شهر من تشظّي السنواتُ الثلاثمئة التي لمحها أمامه خلال أيّام قليلة: ملأ الناسُ شوارعَ براغ واحتفلوا بوصول الأزمنة الجديدةً وهم يخشخشون بالمفاتيح بأيديهم.

هل أخطأ سكاسِل حين تحدّث عن ثلاثمئة سنة؟ طبعاً أخطأ. كلُّ التقديرات تُخطئ، إنّها أحد الأشياء اليقينية التي نملكها نحن البشر. لكنها حتى ولو أخطأت فيما يتعلق بالمستقبل إلّا أنها تقول

الحقيقة بالنسبة إلى الذين يعلنونها، إنها مفتاحهم كي يفهموا كيف يعيشون زمنهم الحاضر. خلال ما أسميته عشرينيتهم الأولى (بين 1918 و1938) فكّر التشيكيون أنّ جمهوريتهم تستعد لتعيش زمناً لانهائيّاً. أخطؤوا، لكن ولأنّهم أخطؤوا عاشوا تلك السنوات بسعادةٍ جعلت الفنون تزدهر كما لم تزدهِر من قبل.

ولأنّهم لم يملكوا أدنى فكرة عن نهاية الشيوعية القريبة تصوّروا أنّهم يعيشون بعد الغزو الروسي في المُطلق من جديد، بحيث أنّ غياب المستقبل وليس عذاب الحياة الحقيقية هو الذي انتزع منهم قوّتهم، وهو الذي خنق شجاعتهم وحوّل هذه العشرينية الثالثة إلى زمن في غاية الجبن وغاية البؤس.

في العام 1921 صرّح أرنولد شونبِرغ واثقاً من أنّه فتح آفاقاً بعيدة في تاريخ الموسيقى بفضل جماليته ذات العلامات الاثنتي عشرة، أنّه ضَمِنَ هيمنة (لم يقُل «مجدَ»، قال Vorherrschaft هيمنة) الموسيقى الألمانية (ومع أنّه كان ڤيينيّاً لم يقل الموسيقى «النمساوية» وقال «الألمانية») خلال المئة سنة المقبلة (أذكرها بكلّ دقّةٍ فهو تحدّث عن «مئة سنة»). وفي العام 1936 ، أي بعد خمسة عشر عاماً من هذا التنبّؤ، نُفيَ من ألمانيا، (نفسها التي أراد أن يضمن لها الهيمنة) نظراً لأنّه يهوديّ، ومعه كلّ الموسيقى القائمة على العلامات الاثنتي عشرة (المحكوم عليها بأنها غامِضة، نُخبويّة، عالمية ومعادية للروح الألمانية).

ومهما كان تنبّؤ شونبِرغ مخادعاً، إلاّ إنّه ما زال ضروريّاً لمن يريدون أن يفهموا معنى أعماله، التي لم يكن يعتقد أنّها هدّامة ومستغلقة وعالمية، فردانيّة، صعبة، تجريدية، بل متجذّرة عميقاً في «الأرض الألمانية» (نعم، كان يتحدَّث عن «الأرض الألمانية»)؛ لم يُفكِّر شونبِرغ أن يكتب خاتمة لتاريخ الموسيقى الأوروبية

العظيمة (تماماً كما أميل لفهم أعماله) بل مقدّمة لمستقبل مجيد يمتدّ على مدّ البصر.

4

منذ الأسابيع الأولى لهجرتها راحت إرِنا ترى أحلاماً غريبةً: إنّها في طائرة بدّلت خطّها وحطّت في مطارٍ مجهولٍ؛ رجالٌ بلباسٍ موحَّدٍ مسلّحون ينتظرونها في نهاية الممر، بجبين يتصبّب عرقاً بارداً، عرفت فيهم الشرطة التشيكية. في مناسبة أخرى وبينما هي تتنزّه في مدينة فرنسية صغيرة رأت مجموعة غريبة من النسوة، كلّ واحدة منهنّ تحمل في يدِها إبريقَ بيرتها، يجرين نحوها، يستجوبنها بالتشيكية، يضحكن بحميمية سيّئة النيّة، تنتبه إرِنا مذعورة إلى أنّها في براغ، فتصرخ وتستيقظ.

كانت لـ مارتين، زوجها، الأحلام ذاتها. في كلّ صباحٍ يحكي الواحدُ منهما للآخر عن رعبَ العودة إلى بلده الأصلي. بعد ذلك وخلال حديث لها مع صديقة بولونية مهاجرة أيضاً، فهمت إرِنا أنّ جميع المهاجرين يملكون هذه الأحلام، جميعهم دون استثناء. في البداية أثّرت بها هذه الأخوّة الليلية بين أشخاص لا يعرفُ بعضهم بعضاً، لكنّها انزعجت بعد ذلك قليلاً: كيف يمكن أن تُعاش تجربة الحلم الحميمية جماعيّاً؟ أين روحها الوحيدة إذن؟ لكن لماذا تصوغ أسئلة لا جواب لها. شيء واحد كانت واثقة منه: آلاف المُهاجرين يحلمون على امتداد الليل بالحلم ذاته مع تنويعات لا تُحصى. حلم الهجرة: إحدى أغرب ظواهر النصف الثاني من القرن العشرين.

كانت هذه الأحلام ـ الكوابيس تبدو لها أكثر غموضاً، لأنّها في الوقت ذاته كانت تعاني من حنين جامِح وتعيش تجربةً أخرى مناقضة تماماً: مشهدان من بلدها كانا يظهران لها. لا، لم يكن

الموضوع موضوع حلم طويل واعٍ وإراديّ، بل شيئاً آخر: في كلّ لحظةٍ، تشتعل في رأسها فجأة وبسرعة رؤى مشاهد تختفي بعد قليل. بينما تتكلّم مع رئيسها، ترى فجأة وفي لمح البصر، طريقاً يشقّ حقلاً. بين تدافعات عربة مِترو، وفي جزء من الثانية ينبثق فجأة أمامها شارع عريض في حيّ من أحياء براغ. كانت هذه الخيالات الفرورة تزورها طوال النهار كي تُخفِّف من غياب بوهيمياها الضائعة.

سينمائيُ اللاوعي نفسه الذي كان يرسل إليها نهاراً لقطاتٍ فوريةً من مشاهد مسقط الرأس كصور سعيدة، كان يعرض أمامها ليلاً عودات مرعبة إلى البلد ذاته. النهار يُضاء بجمال البلد المهجور، والليل برعبِ العودة. النهار يبين لها الجنّة المفقودة والليل الجحيم الذي هربت منه.

5

حرّمت الدولُ الشيوعيّةُ الوفيّةُ لتقاليدِ الثورةِ الفرنسية الهجرةَ، التي اعتبرتها أبغضَ الخيانات إليها. جميع من بقي في الخارج حُكِم عليهم بأنّهم هاربون من العدالة في بلدهم ولا يجرؤ أبناء وطنهم على الاتصال بهم. ومع ذلك راحت الحرمةُ تهِن مع مرور الزمن فقبل سنوات من عام 1989؛ كانت أمُّ إرِنا، المتقاعدة المُسالمةُ، التي ترّملت قبل فترةٍ وجيزة قد حصلت، بفضل خدمات وكالة سفر الدولة، على تأشيرةٍ لقضاء أسبوعٍ في إيطاليا، وفي العام التالي قرّرت البقاء لقضاء خمسة أيّام في باريس، كي ترى ابنتها دون أن تلفت الانتباه. حجزت لها إرِنا، المتأثّرة والمفعمة بالشفقة على أمٍّ تصوّرتها كبيرة في السن، غرفةً في فندقٍ وضحّت ببعض الأيّام من إجازتها كي تتمكّن من المكوث معها طوال الوقت.

«لا تبدين في حالة سيّئة جدّاً» قالت لها الأمُّ حين التقتا. «وأنا

أيضاً. حين نظر شرطي الجمارك إلى جواز سفري، قال لي: جوازُ سفرك مزوّر، يا سيّدة! لا يمكن أن يكون هذا هو تاريخ ولادتك!» وفجأةً عرفتْ إرِنا أنّ أمّها ما زالت كما عرفتها تماماً؛ شعرت أنّ شيئاً لم يكد يتغيّر فيها خلال تلك السنوات العشرين. فجأة تبخّرت الشفقة على أمٍّ شائخة. وتقابلت الإبنة والأم ككائنين خارج الزمن، كجوهرين لازمنيين.

لكن ترى أليس مستنكَرَاً ألا تفرح ابنةٌ بوجودِ أمّها، التي جاءت لرؤيتها بعد سبعة عشر عاماً؟ استنفرت إرِنا كامل عقلها، كامل إحساسها الأخلاقي، كي تتصرّف كابنةٍ حريصةٍ. حملتها للعشاء في مطعم الدور الأوّل من برج إيفل. ذهبتا في سفينة للتنزّه لرؤية باريس من نهر السين؛ وحين أرادت أمُّها أن تزورَ متاحفَ حملتها إلى متحف بيكاسو. توقّفت الأمُّ في القاعة الثانية: «عندي صديقة رسّامة. أهدتني لوحتين من أعمالها. لا يمكنك أن تتخيّلي كم هما جميلتان!». في القاعة الثالثة أرادت أن تُشاهِد أعمالَ الانطباعيين: «في جو دِ بوم هناك معرِضٌ دائم». «ما عاد موجوداً» قالت لها إرِنا، «فأعمال الانطباعيين الآن مبعثرة في متاحِف عدّة» «لا، لا» قالت الأمُّ «إنّها في متحف جو دِ بوم. أعرفُ ذلك ولن أذهب من باريس دون أن أرى أعمال فان كوخ!» ولكي تُغطّي إرِنا على غياب أعمال فان كوخ حملتها إلى متحف رودان. تنهّدت الأمُّ أمام إحدى منحوتاته ، كما لو أنّها في حلمٍ: «في فلورنسا رأيتُ تمثال داوود لمايكل أنجلو، لقد انقطعَ نفسي!». «انظري» انفجرت إرِنا، «أنتِ معي في باريس وقد جئتُ بك كي تري رودان. رودان! هل تسمعينني؟ وأنت لم تره من قبل، فلماذا تفكّرين بمايكل أنجلو حين تكونين أمام رودان؟»».

كان السؤالُ مناسباً: لماذا لا تهتمّ الأمُّ وقد التقت بابنتها بعد كلِّ تلك السنوات بما تُريها؟ لماذا سحرها مايكل أنجلو، الذي رأت أعماله مع مجموعة من السياح التشيك، أكثرَ من رودان؟ ما من

سؤالٍ عن حياتها، ولا عن فرنسا، أو مطبخها، أدبها، أجبانها، نبيذها، سياستها، مسارحها، أفلامها، سياراتها، عازفي بيانوهاتها وكماناتها، ورياضيّيها؟

بالمقابل فإنها لا تنقطع عن الكلام عمّا يجري في براغ، عن أخي إرِنا غير الشقيق (ابنها من زوجها الثاني، المتوفّى منذ فترة قصيرة). عن أشخاصٍ تتذكّرهم إرِنا وآخرين لم تسمع بهم قط. حاولت في مناسبتين أو ثلاث أن تمرّر ملاحظة عن حياتها في فرنسا، لكنّ كلماتها لم تتمكّن من تجاوز حاجِز خطابِ أمّها الذي لا صدع فيه.

هذا ما كان يجري منذ الطفولة: إذ بينما الأمّ تعتني بابنتها برقّة كما لو كانت طفلة، تتخذ من ابنها موقفاً اسبارطيّاً بشكلٍ رجولي. هل أريد من ذلك أن أقولَ بأنّها لا تُحبّها، ربّما بسبب أبِ إرِنا، زوجها الأوّل، الذي كانت تعتبره خسيساً؟ لنبتعد عن مثل علم النفس الرخيص هذا. سلوكها لا يمكن أن يكون أسلم نيّةً: لأنها فائضة القوّة والصحّة كانت تقلق على عدم حيويّة ابنتها؛ فهي بآدابها الفظّة كانت تريدُ أن تُخلّص ابنتها من حساسيتها الفائقة، وهي بذلك تشبه ما يفعله أبٌ رياضيّ يُلقي بابنه الهيّاب إلى المسبح، مُقتنِعاً بأنّها أفضلُ طريقةٍ كي يتعلّمَ السباحة.

ومع ذلك، كانت تعرف أنّها بمجرّد حضورها تسحقُ ابنتها، ولا أستطيع أن أنكِر أنّها كانت تستمتع في سرِّها بتفوّقها الجسدي. إذن؟ ماذا عليها أن تفعل؟ هل تتنازل لها باسم الحبّ الأموميّ؟ عمرها يتقدّم بلا رحمة، ووعيها لقوّتها، تماماً كما تبدّى في ردّة فِعل إرِنا، يُجدّد شبابها. تراها بجانبها، مرعوبةً منكمشةً فتُطيلُ بكلّ ما تستطيعُ لحظاتِ تفوّقها الساحق. تتظاهر بنوع من الساديّة أنّها تأخذُ هشاشةَ إرِنا مأخذ اللامبالاة، والكسل، والتراخي، فتؤنّبها.

منذ البداية شعرت إرنا بأنّها أقلّ جمالاً وذكاء في حضورها. كم مرّة جرت نحو المرآة كي تتأكّد من أنّها ليست قبيحةً، ولا تبدو بلهاء! آخ، كلّ ذلك صار بعيداً جدّاً، طيَّ النسيان تقريباً. لكن خلال الأيّام الخمسة التي قضتها أمّها في باريس، انهال فوقها من جديد ذلك الإحساس بالدونية، بالوهن، وبالتبعية.

6

عرّفت إرنا أمّها على غوستاف، صديقها السويدي، قبل يوم من ذهابها. تعشّى الثلاثةُ في مطعم، والأمّ التي لم تكن تعرف كلمةً فرنسيّةً واحدة، لاذت بالإنكليزية بتّباهٍ. سُرَّ غوستاف: فهو لم يكن يتكلّم مع عشيقته إلاّ بالفرنسية وقد سئم هذه اللغة، التي كان يعتبرها صلفة وغير عمليّة كثيراً. تكلّمت إرنا في تلك الليلة قليلاً: لاحظت مندهشةً كيف كانت أمّها تستعرض مهارةً مفاجئة في الاهتمام بشخص آخر؛ أفحمت غوستاف بكلماتها الإنكليزية الثلاثين سيّئة اللفظ، بأسئلة عن حياته، شركته، آرائه، وأذهلته.

ذهبت الأمُ في اليوم التالي. وعند عودتها من المطار اقتربت إرنا من النافذة في شقّتها في الدور الأخير كي تتذوّق ، في السكينة المستعادة، حرّيةَ وحدتها؛ تأمّلت طويلاً السطوح، تنوّع المداخِن بأشكالها الاعتباطية، هذه النباتات الباريسية التي حلّت منذ زمن طويلٍ بالنسبة لها محل خضرة الحدائق التشيكية، وانتبهت كم كانت سعيدة في تلك المدينة. دائماً بدا لها واضحاً أن هجرتها كانت فاجعةً. لكنّها تساءلت في تلك اللحظة ما إذا كانت وهمَ فاجعة، وهماً ناتجاً عن الطريقة التي يفهم بها الجميع المهاجرَ. تُراها ألا تشاهد حياتها حسب كتاب التعليمات الذي وضعه آخرون بين يديها؟ وقالت لنفسها ربّما كانت هجرتُها، وإن كانت مفروضة من الخارج وضدّ إرادتها، أفضلَ مَخرج لحياتها دون أن تدري. قوى

التاريخ التي لا ترحمُ والتي اعتدت على حرّيتها انتهت إلى أن جعلتها حرّةً.

بعد أسابيع قليلة ارتبكت قليلاً حين أعلن لها غوستاف بافتخار خبراً جيّداً: لقد اقترح على شركته أن تفتتح مكتباً لها في براغ. في البلد الشيوعي، الذي لم يكن جذّاباً جدّاً تجارياً، سيكونُ المكتبُ متواضعاً، لكنّ هذا سيتيح له فرصة إقاماتٍ قصيرة هناك.

ـ تسعدني جدّاً فكرة أن أعرف مدينتك بعمقٍ ـ قال.

وبدل أن تفرحَ شعرتْ بتهديدٍ غامِض.

ـ مدينتي؟ ما عادت براغ مديني ـ أجابت.

ـ كيف؟ ـ استغرَب.

لم تُخفِ إرِنا عنه قط ما كانت تفكّرُ به، وبالتالي فهو يملك إمكانيّة معرفتها جيّداً، إلاّ أنه كان يراها كما يراها الجميع: شابّة تُعاني، منفيّة من بلدها. هو نفسه كان من مدينة سويدية يكرهها من كلّ قلبه ويرفض أن يعود ليضع قدمه فيها. لكن هذا طبيعي في حالته. لأنّ الجميع يستقبله *كسكنديناڤي ظريف، عالمي جدّاً، ونسي المكان الذي وُلِدَ فيه*. كلاهُما صُنّف وطُبِع وسيُحكم عليه حسب وفائه لهذا القاعدة (لكن، طبعاً هذا، وهذا وحده ما يُسمّى عادةً بتشديد: وفاء المرء لنفسه).

ـ ما الذي تقولينه؟ ـ احتجّ ـ ما هي مدينتُكِ إذن؟

ـ باريس! هنا تعرَّفتُ عليك، وهنا أعيشُ معك.

داعبَ يدها كما لو أنّه لا يسمعها: «اقبليها كهديّة. إذا كنت لا تستطيعين الذهاب إلى هناك، فأنا سأعمل من نفسي رابطة بينك وبين بلدك المفقود. وتُسعدينني بذلك!»

لم تشكّ هي بطيبته؛ شكرته، ومع ذلك أضافت بنبرةٍ متأنّية: «أرجوك أن تفهم أنّني لا أحتاج لأن تعمل من نفسك جسر ارتباط مع أيّ شيء. أنا سعيدة معك، معزولة عن كلّ شيء وعن الجميع».

هو صار جدّياً أيضاً: «أنا أفهمك. لا تخافي لأنّني لا أريدُ أن أحشر نفسي في حياتِكِ الماضية. الشخص الوحيد الذي سأراه من بين من عرفتِهم هناك هي أمّك».

ماذا كان باستطاعتها أن تقولَ له؟ أنّ أمّها هي بالتحديد من لا تريدُه أن يتردّدَ عليها؟ كيف ستقول له هذا وهو الذي يتذكّرُ أمَّه الميتةَ بكثيرٍ من الحبّ؟

ـ تُعجبني أمُّكِ. يا لحيويّتها!.

إرِنا لا تشكّ بذلك، فالجميع يُعجبون بحيويّةِ أمّها. كيف ستوضّح إرِنا لغوستاف أنّها لم تتمكّن قط من التحكّم بحياتها في الدائرة السحريّة للقوّة الأمومية؟ كيف ستوضّح له أنّ القرب المستمر من أمّها سيجعلها تتقهقر إلى نقاط ضعفها، إلى عدم النضج؟ كيف خطرت لغوستاف هذه الفكرة المجنونة المتمثلة برغبته في التواصل مع براغ؟

لم تتمكّن من الهدوء والسكينة حتى وصلت إلى بيتها وبقيت وحدها: «من حسن الحظّ أنّ الحاجز الأمني بين البلدان الشيوعية والغرب صلب كفايةً. ليس هناك من داعٍ كي أخاف من أن تُشَكِّلَ احتكاكات غوستاف ببراغ تهديداً لي».

لكن، كيف؟ ما الذي انتهت من قوله؟ «من حسن الحظّ أنّ الحاجز الأمني صلب كفايةً»؟ هل قالت «من حسن الحظ» حرفيّاً؟ هل قالت، هي المهاجرة التي يُشفِق عليها الجميع لأنّها فقدت وطنها، «من حسن الحظّ»؟

7

كان غوستاف قد تعرّف على مارتين بالمُصادَفة خلال إحدى المباحثات التجارية. وتعرّف على إرِنا بعد ذلك بكثير، بعد أن

ترمّلت. أُعْجِبَ الواحدُ منهما بالآخر، لكنّهما كانا خجولين، حتى أنّ الزوجَ جاء من الماوراء لمساعدتهما، عارِضاً نفسه كموضوعٍ سهلٍ للحديث. حين عرف غوستاف من خلال إرِنا أنّ مارتين وُلد في العام ذاته الذي وُلِد هو فيه، أحس بالجدار الذي كان يفصله عن تلك المرأة الأصغر منه بكثير ينهارُ، وشعرَ بامتنانٍ لطيف تجاه المتوفّى الذي شجّعه عمرُهُ على مغازلة زوجته الجميلة.

كان يُبجِّلُ أمّه الميتةَ، ويتسامح (دون حماسٍ) مع ابنتيه الراشدتين ويهربُ من زوجته؛ ويودّ لو يطلّقها إنْ استطاع بمودّة. وبما أنّ ذلك كان مُحالاً، راحَ يفعلُ ما بمقدوره كي يبقى بعيداً عن السويد. إرِنا كان عندها ابنتان مثله، وعلى وشك الاستقلال أيضاً. اشترى غوستاف للكبرى شقّة صغيرة وعثر في إنكلترا على مدرسة داخلية للصغرى، بحيث أنّه لو بقيت إرِنا وحيدة تستطيع أن تؤْويه في بيتها.

بهرتها طيبة غوستاف، التي كانت برأي الجميع الملمح الرئيسي، الأكثر إدهاشاً، الذي يكادُ يكون غير محتمل في سجيَّته. هكذا كان يستميل النساء، اللواتي ينتبهن متأخرات إلى أنّ هذه الطيبة هي سلاح دفاعٍ أكثر منها سلاح إغراء. طفل محبوب من أمّه، غير قادر على العيش لوحده، دون رعاية النساء. إلاّ أنّه أيضاً لم يكن يُحسن تحمّل متطلباتهنّ، شجاراتهنّ، بكائهنّ بل ولا أجسادهنّ المفرطة بحضورها، المفرطة بتعبيريتها. ولكي يتمكّن من الاحتفاظ بهنّ والهرب منهنّ في آنٍ معاً كان يُطلِق عليهنّ مدافع طيبته. تحت حماية موجة الانفجار الانتشارية كان يجهدُ في التراجع.

مكثت إرِنا في البداية محتارة أمام طيبته: لماذا كان لطيفاً،

كريماً وقليلَ المطالب إلى ذلك الحدّ؟ كيف تردّ إليه هذا. لم تجد تعويضاً آخر غير أن تنصب رغبتها أمامه. كانت تمعن النظر فيه، وعيناها المفتوحتان تماماً تُطالبه بشيء هائل ومسكر، بشيء لا اسم له.

رغبتها؛ لقد كانت حزينةٌ قصّة رغبتها. لم تعرف لذّة الحب قبل أن تتعرَّف على مارتين. بعدها أنجبت، وانتقلت من براغ إلى باريس تحمل في بطنها ابنة ثانية، وبعد فترة قصيرة تُوفّي مارتين. قضت بعدها سنواتٍ طويلة وشاقّة، مجبرة على أن تقبل أيّ عملٍ ـ مستخدَمة بيت، مرافِقة لثريّة مصابة بالشلل النصفي ـ واعتبرت نجاحاً كبيراً أن تستطيع الترجمة من الروسية إلى الفرنسية (كانت سعيدة لأنّها درست لغاتٍ بعمقٍ في براغ). مرّت السنون وصارت النساء يتعرّين في الإعلانات، ولوحات الدعاية وأغلفة المجلات الأولى في الأكشاك. وراح الأزواج يتبادلون القبل، والرجال يستعرضون أنفسهم بالسراويل الداخلية بينما جسدها وسط مثل هذا المجون الكليّ الحضور يتيه في الشوارع، مقصياً، غير مرئيّ.

لذلك كان لقاؤها مع غوستاف عيداً كاملاً. بعد كلّ هذا الزمن هناك أخيراً من يمعن النظر في جسدها ووجهها ويقدّرهما، ويطلب منها رجل، بفضل سحرها، أن تشاطره حياته. وسط مثل هذا السحر فاجأتها أمّها في باريس. لكن في هذه الفترة ذاتها وربّما بعدها بقليل بدأت تشكّ بشكل مبهم بأن جسدها لم يهرب تماماً من القدر الذي كُتِب عليه ظاهرياً مرّة واحدة وإلى الأبد. فهو الذي كان يهرب من امرأته، من نسائه، لم يكن يبحث فيها عن مغامرةٍ، عن شبابٍ متجدّد، عن حرّية الحواسّ، بل عن الراحة. لا

نبالِغ: جسدها لم يبقَ على حاله، لكن الشكّ عندها كان يزداد بأنّه لُمس أقلّ ممّا يستحق.

8

انطفأت الشيوعية في أوروبا بعد مئتي سنة تماماً من اشتعال فتيل الثورة الفرنسية. بالنسبة إلى سيلفي، صديقة إرِنا الباريسية كانت تحدث هناك مصادفة مليئة بالمعاني. لكن بأيّ معنى عمليّاً؟ ما الاسم الذي سيُطلق على قوس النصر الذي يربط بين هذين التاريخين؟ *هل قوس أعظم ثورتين أوروبيّتين؟ أم القوس الذي يربط أعظم ثورة بإعادة الملكية*؟ لتفادي النقاشات الإيديولوجية أقترحُ لاستخدامنا الخاصّ تفسيراً أكثر تواضعاً: التاريخ الأوّل أعطى شخصيّة أوروبيّة عظيمة، هي المُهاجر (الخائن الكبير، أو المعذَّب الكبير، حسب الكيفية التي يُنظر إليه بها)؛ الثاني سحبَ المهاجرَ من مسرح تاريخ الأوروبيين، وبذلك وضع سينمائيُّ اللاوعي الجمعي نهايةً لواحد من إنتاجاته الأكثر أصالة، وهو إنتاج أحلام الهجرة. عندئذٍ كانت عودة إرِنا الأولى لعدّة أيّام إلى براغ.

في البداية كان البردُ شديداً، ثمّ وبعد ثلاثة أيّام جاء الصيف بشكلٍ مبكّر وغير منتظر. ولم يعد باستطاعتها أن ترتدي الطقم مع الجاكيت السميكَ أكثر من اللازم. وبما أنّها لم تحمل معها أيّة ثياب لطقس أكثر دفئاً، ذهبت إلى أحد المحلات كي تشتري فستاناً صيفياً. لم يكن البلد يطفح بعد بالمنتجات الغربية؛ وعادت إرِنا لتجد القماشَ ذاته، الألوان ذاتها، التفصيلات ذاتها التي عرفتها في المرحلة الشيوعية. جرّبت فستانين أو ثلاثة فشعرت بعدم الراحة. كان من الصعب عليها أن تقول السبب: لم تكن بشعة، لم تكن سيّئة التفصيل، لكنّها تُذكّرها بماضيها البعيد، بالصرامة في لباس

الشباب. بدت لها ساذجة، ريفيّة، غير أنيقة، وخاصّة بمعلّمة قرية. لكنّها كانت مستعجلة. لماذا لا تبدو في نهاية المطاف معلّمة قرية لعدّة أيّام ؟ اشترت الفستان بمبلغٍ زهيدٍ جدّاً وارتدته وحملت الطقم مع الجاكيت في كيس، ثم خرجت إلى الشارع، حيث كان الحرّ مفرطاً.

ثمّ وحين مرّت أمام بعض المخازن الكبيرة وجدت نفسها دون توقّع أمام لوحة فيها مرآة هائلة فصُعقت: منْ تُراها كانت، إنها ليست هي، كانت شخصاً آخر، أو بالأحرى حين نظرت بتمعّن في لباسها الجديد كانت هي فعلاً، لكنّها تعيشُ حياةً أخرى، الحياة التي كانت ستعيشها لو بقيت في بلدِها. لم تكن تلك المرأة منفِّرة، بل مؤثّرة، مؤثّرة أكثر من اللازم، مؤثّرة حتى البكاء، تستحقّ الشفقة، فقيرة، ضعيفة، ومذعنة.

سيطر عليها رعب أحلام الهجرة السابقة ذاتها: من جرّاء قوّة فستان سحرية وجدت نفسها أسيرةَ حياةٍ ترفضها ولا تقدر على الخروج منها. كما لو أنّه كان أمامها في ذلك الحين ، في بداية حياة المراهقة، عدّة حيواتٍ واستطاعت أن تختار تلك التي قادتها إلى فرنسا! وكأن تلك الحيوات، المبعَدة والمهجورة بقيت دائماً تحت تصرّفها وتترصّدها من أوكارها بحذر! واحدة منها تمكّنت الآن من إرِنا فحبستها في لباسها الجديد كما لو في سترة الجنون.

جرت خائفةً إلى بيت غوستاف (كانت شركته قد اشترت بناءً وسط براغ أقام في علّيته مسكناً له) وبدّلت ملابسها. وحين أصبحت من جديد في طقمها ذي الجاكيت نظرت من النافذة. كانت السماء قد غامت والأشجار انحنت مع الريح. حدث حرّ لساعات عدّة فقط؛ ساعات حرٍّ كي تلعب معها مزحة كابوس، كي تُحدّثها عن رعب العودة.

(تراه كان حلماً؟ حلمَ المهاجرة الأخير؟ لا، كلّ شيء كان حقيقيّاً. لكن تشكّل لديها انطباع بأن المكائد التي كانت تتحدّث

عنها تلك الأحلامِ لم تختفِ واستمرّت هناك جاهزة دائماً ، تترصّدها في كلّ خطوة).

9

خلال سنوات غيابه العشرين، احتفظ الإيثاكيون بذكريات كثيرة عن عوليس، لكنّهم لم يشعروا بالحنين إليه، بينما كان عوليس يشعر فعلاً بألم الحنين رغم أنّه لم يكن يتذكّر شيئاً.

يمكننا أن نفهم هذا التناقض الغريب إذا ما انتبهنا إلى أنّ الذاكرة تحتاجُ، كي تعمل جيّداً، لتمرين لا ينقطع: تختفي الذكريات إذا لم تُستحضَر مرّة وأخرى في أحاديث الأصدقاء. المهاجرون المتجمّعون في جالياتٍ من أبناء وطنهم يتبادلون حتى الغثيانِ الحكاياتِ ذاتها وهكذا لا تُنسى. لكن أولئك من أمثال إرِنا وعوليس الذين لا يتردّدون على أبناء وطنهم يقعون في فقدان الذاكرة. كلّما اشتدّ حنينهم كلّما فرغوا أكثر من ذكرياتهم، كلّما كان عوليس يزدادُ نحولاً كلّما ازداد نسيانه. لأنّ الحنين لا يُنشّط الذاكرة ، لا يبعث الذكريات، يكتفي بذاته، بعاطفته، يمتصّه، كما هو حاله، عذابه الخاصّ.

بعد القضاء على الجبناء الذين كانوا يريدون الزواج من بنِلوبّ والسيطرة على إيثاكا، وجد عوليس نفسه مضطرّاً للتعايش مع أناسٍ لا يعرف عنهم شيئاً. وهؤلاء كي يُسعدوه كان يُثقِلون عليه بكلّ ما يتذكّرونه عنه قبل ذهابه إلى الحرب. وباقتناعهم بأنّه ما من شيء يهمّه أكثر من مدينته إيثاكا (كيف لن يفكّروا كذلك إذا كان قد قطع البحار المترامية الأطراف كي يعودَ إليها؟) راحوا يسحقونه بكلّ ما حدث خلال غيابه، متعطشين للإجابة على كلّ أسئلته. ما من شيءٍ كان يُضجره أكثر من هذا. وكان لا ينتظر إلاّ شيئاً واحداً

يقولونه له أخيراً: «احكِ!». لكن هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يقولوه له قط.

عشرون عاماً لم يفكّر فيها بشيء آخر غير العودة. لكنّه ما إن عادَ، حتى أدرك مندهِشاً أنّ حياته، جوهرها ذاته، مركزها، كنزها، كان خارج إيثاكا، في سنوات تيهه العشرين في العالم. كان قد فقد هذا الكنز الذي فقط لو رواه لاستطاع العثور عليه من جديد.

حين غادر كاليبسو، خلال رحلة العودة، غرق في فياثيا، حيث آواه الملك في بلاطه. هناك كان غريباً، مجهولاً غامضاً. والمجهول يُسأل «من أنت؟ من أين جئت؟ احكِ!» وهو حكى. أعاد خلال ثمانية أيّامٍ طويلة من الأوديسة تركيبَ مغامراته بالتفصيل أمام الفياثيينَ المذهولين. لكنّه في إيثاكا لم يكن غريباً، كان واحداً منهم ولذلك لم يخطر لأحدٍ منهم أن يقول له «احكِ!».

10

ألقت نظرةً على مفكِرات عناوينها القديمة متوقّفةً طويلاً أمام أسماء نصف منسية؛ ثمّ حجزت قاعة في مطعم. على طاولة أُسنِدت إلى جدار، تنتظرُ بجانب المعجناتِ المالحةِ اثنتا عشرة زجاجة نبيذ. في بوهيميا لا يشربون نبيذاً جيّداً، ليس لديهم عادة الاحتفاظ بالمحاصيل القديمة. من هنا سعِدت إرِنا جدّاً بشرائها نبيذَ بوردو معتّقاً: كي تفاجئ زائراتها، للاستمتاع به في حفلة، ولاستعادة صداقتهنّ.

كادت تُخرِّبُ كلَّ شيء. راحت صديقاتُها يراقبن الزجاجات منزعجاتٍ، إلى أن أعلنت واحدة منهنّ بوقارٍ واعتزاز ببساطتها عن تفضيلها للبيرة. انضمت الأخريات المشتعلات حماساً لهذه الشطارة إليها، ونادت المحبّةُ المتحمِّسةُ للبيرة النادلَ.

كانت إرِنا تلومُ نفسَها على مبادرة صندوق نبيذِ بوردو

البائسة، لأنّها أظهرت بغباء ما يفصل بينهنّ: غيبتها الطويلة عن البلدِ، عاداتها كأجنبيّة، وخفّتها. تلوم نفسها أكثر لأنّها تُعطي هذا اللقاء الجديد أهميّة كبيرة: تريد أن تعرف أخيراً ما إذا كانت ترغبُ بأن تعيش هنا، أن تشعر بأنّها في بيتها، وأن يكون لها أصدقاء. لذلك لا تريدُ أن تُعقّد نفسها بهذه الورطة الصغيرة، بل إنّها مستعدّة لأن تعتبرها وسيلةً لطيفة للمصارحة؛ ثمّ أليست البيرة التي عبّرت المدعوّاتُ عن وفائهنّ لها، مشروب الصراحة، المصفاةَ التي تُصفّي كلَّ نفاقٍ؟ أليست مسرحيّة لآداب اللباقة الحسنة، وتحثّ محبيها على التبوّلِ دون خجلٍ وعلى البدانة دون اكتراث؟ نعم، النساء من حولها بدينات بحرارة، لا يتوقّفن عن الكلام، يسرفن بالنصائح ويمتدحنَ غوستاف، الذي يعرفنه جميعاً.

خلال ذلك يظهر النادلُ في الباب مع عشرة أباريق بيرة من ذات النصف لِتر، خمسة في كلِّ يدٍ، الاستعراض الرياضيَ الذي يبعث على الضحك والتصفيق. يرفعن الأباريق ويشربن النخبَ: «في صحّة إرِنا! في صحة الابنة الضالّة!»».

تشربُ إرِنا جرعةً متواضعةً من البيرة وتقول: تراهُنّ كنَّ سيرفضن النبيذَ لو كان غوستاف من يقدّمه لهن؟ طبعاً لا. حين يرفضن نبيذها، يرفضنها هي، هي كما عادت بعد كلِّ تلك السنوات.

على هذا تقوم مراهنتها: ذهبت من هناك وهي ما تزال فتاة بريئةً، وتعودُ الآنَ وقد صارت امرأة ناضجةً وخلفها حياة، حياة صعبة تشعر بالافتخار بها. تريدُ أن تفعل أيَّ شيءٍ كي يقبلنها بتجاربها التي عاشتها في السنواتِ الأخيرة، بقناعاتها، وأفكارها. هي مسألة: خذوها أو اتركوها: إمّا أن تتمكّن من البقاء معهنّ كما هي الآن أو أنّها لن تبقى. لقد نظّمت هذا اللقاء كنقطة انطلاقٍ لهجومها. ليشربن البيرةَ إذا أصررن على ذلك، فالأمر سيّان عندها، ما يهمُّها هو أن تختار هي نفسها موضوعَ الحديث وأن تتمكّن من جعلهنّ يُصغين إليها.

لكنَّ الوقتَ يمرُّ، والنساء يتكلّمن جميعاً دفعةً واحدة، ومن المحال تقريباً القيام بحديث، وأقل من ذلك فرض مضمون له. تُحاول إرِنا أن تُمسِكَ برقّةٍ بالموضوعات التي تنبثق وتحرفها باتجاه ما تريدُ قوله، لكنّها تفشلُ: ما أن تبتعد تعليقاتُها عن اهتماماتهنّ حتى لا يعود هناك من توليها انتباهاً.

جاء النادِل بالدفعة الثانية من البيرة؛ ما زال إبريقها الأوّل على الطاولة، وقد ذهبت رغوته، فبدا وكأنّه فقد شرفه بجانب رغوةِ البيرةِ الطافحة التي أُحضرت توّاً. تلومُ إرِنا نفسها لأنّها فقدت عادة الاستمتاع بالبيرة؛ ففي فرنسا تعلّمت أن تتذوّق البيرة برشفات صغيرة، وفقدت عادة اجتراع كمياتٍ وفيرة من السوائل، كما يتطلّب طقسُ البيرةِ. ترفع الإبريق إلى فمها وتُجهد نفسها في شرب جرعتين، ثلاث جرعات دفعةً واحدة. في هذه اللحظةِ تسند امرأة هي أكبرهنّ سنّاً، تخطّت عتبة الستين، يدها برقّة على شفتيها لتُزيل عنهما الرغوةَ التي علقت هناك. «لا تُجهدي نفسك»، تقول لها. «لماذا لا نشرب أنتِ وأنا نبيذاً؟ من الغباء أن نخسر نبيذاً بهذه الجودة»، وتتوجّه إلى النادِل كي يفتح واحدة من الزجاجات التي بقيت دونَ أن تُمس على امتداد الطاولة.

11

كانت ميلادا زميلةً لمارتين في المعهد ذاته. ما أن ظهرت في باب القاعة حتى عرفتها إرِنا، لكنها الآن فقط تستطيع، وقد أصبح في يدِ كلّ واحدة كأس من النبيذ، أن تتكلّم معها؛ تنظرُ إليها: مازال وجهها يحتفظ بشكله ذاته (استدارته)، الشعر الأسود ذاته، التسريحة ذاتها (أيضاً مستديرة، والتي تُغطّي أذنيها وتصل إلى الأسفل من ذقنها). كانت تعطي انطباعاً بأنّها لم تتغيّر؛ فقط حين تبدأ بالكلام يتبدّلُ وجهها فجأة: يتجعّد جلدها وينبسط، تعلو

شفتها العليا حزاتٌ عمودية بينما تبدّل تجاعيدُ الخدّين والذقن مكانها بسرعةٍ مع كلّ حركةٍ. تقول إرِنا لنفسها بالتأكيد أن ميلادا لا تنتبه لذلك ولا تعرف وجهها إلاّ حين يكون بلا حراك، وجلدها أملس تقريباً. وجميع مرايا العالم تجعلها تعتقد أنّها ما تزال جميلة.

تقول ميلادا بينما تتذوّقُ النبيذَ (سرعان ما تظهر التجاعيد وتتراقص على وجهها الجميل):

ـ العودة دائماً صعبة، أليس صحيحاً؟

ـ هنّ لا يستطعن أن يُدركن أنّنا نرحل دون أدنى أملٍ بالعودة. قمنا بجهد كي نتجذّر هناك حيث ذهبنا. هل تعرفين سكاسِل؟

ـ الشاعر؟

ـ يتحدّث في رباعية له عن الحزن، يقول إنّه يريد أن يبني معه بيتاً ويحبس نفسه فيه ثلاثمئة سنة. ثلاثمئة سنة! جميعنا رأينا نفقاً من ثلاثمئة سنة ينفتح أمامنا.

ـ نعم، نحن هنا أيضاً.

ـ إذن لماذا لا أحد يريدُ أن يعرف ذلك؟

ـ لأنّنا نصحّح المشاعرَ إذا المشاعرُ أخطأت. إذا التاريخ نقضها.

ـ ثمَّ إن العالم كلّه يعتقد أنّنا نرحل للتمتع بحياةٍ سهلة. لا يعرفون كم من الصعب أن تشقيّ طريقك في عالمٍ غريب. ألا تلاحِظين؟ تُغادرين بلدك ومعك طفل في المهدِ وآخرُ في البطن. تفقدين زوجك. تربين ابنتيك في البؤس...

تسكت فتقول ميلادا: «لا معنى لأن تحكي لهنّ كلّ ذلك. حتى وقت قصير كان الناس يتعاركون ليبرهنوا من عانى أكثر في النظام القديم. نعم، الجميع كانوا يريدون أن يُعترف بهم كضحايا.

من حسن الحظّ أنّ هذا التسابق لمعرفة من عانى أكثر انتهى. الناسُ يتباهون اليوم بالنجاح، وليس بالمعاناة. إذا كان الناس مستعدين الآن كي يحترموكِ، فليس لأنّ حياتك كانت صعبة، بل لأنّك تسيرين بجانب رجلٍ ثريّ!».

تستمران بالحديث برهة طويلة في زاويةٍ من زوايا القاعة إلى أن تقترب منهما الأخريات ويحطن بهما. كما لو أنّهنّ يعتبن على أنفسهنّ أنّهنّ لا يهتممن بما يكفي بمضيفتهنّ، فيتكلمن دون انقطاع (سكرة البيرة أكثر صخباً وطيبة من سكرة النبيذ) ويُبدين ودّاً. تصيح المرأةُ التي طالبت بالبيرة منذ البداية: «في جميع الأحوال عليّ أن أُجرِّب نبيذك!» وتنادي النادلَ، الذي ينتزع فلينة زجاجة أخرى ويملأ الكؤوس.

تظهر لإرِنا رؤيا مباغتة: مجموعة من النساء يجرين نحوها وأباريق البيرة في أيديهنّ وهنّ يضحكن بصخب، فتلتقط كلمات بالتشيكية وتُدرك مذعورة أنّها ليست في فرنسا، بل في براغ وضائعة. هكذا إذن، إنّه واحد من أحلام المهاجرين، التي تريد أن تُبعد ذكراها عنها في تلك اللحظة: هؤلاء النسوة اللواتي يحطنَ بها ما عدن يشربن بيرة، بل يرفعن كؤوساً من نبيذٍ ويشربن نخب الابنة الضالّة؛ ثم تقول واحدةٌ منهنّ مشعّةً: : «هل تذكرين؟ كتبتُ لكِ بأنّه قد حان الوقت، حان الوقت كي تعودي!».

من هذه المرأة؟ لقد أمضت السهرةَ وهي تتكلّم عن مرضِ زوجها، متوقّفةً، مثارةً، عند أدقّ تفاصيل المرض. أخيراً تعرفها إرِنا: إنّها صديقتها في المدرسة، هي نفسها التي كتبت لها عند سقوط الشيوعية: «آه، يا عزيزتي، إننا نشيخ. حان الوقت كي تعودي!». إنها تكرّر الآن هذه الجملة ذاتها وعلى وجهها، الذي صار أكثر كثافة، ابتسامة كبيرة تسمح برؤية أسنانها الاصطناعيّة.

تأسرها البقيّة بالأسئلة: «يا إرِنا، هل تذكرين حين...؟». «هل

تعرفين ماذا جري وقتذاك لـ...؟». «طبعاً، أعرف، لا شكّ أنك تذكرينه!» «ذلك الرجل ذو الأذنين الكبيرتين جدّاً، دائماً كنت تسخرين منه!» «لا يمكنك أن تكوني قد نسيته! إنه لا ينقطِعُ عن الكلام عنك!».

حتى تلك اللحظة لم يهتممن بما كانت تُحاول أن تحكيه لهنّ. ما معنى هذا الهجوم المفاجئ؟ ما الذي تريد أن تعرفه هذه النسوة اللواتي لم يبغين قبل ذلك ولا بشكلٍ من الأشكال أن يسمعن شيئاً؟ تُدرِكُ إرِنا على الفور أنّ أسئلتهنّ خاصّة: أسئلة موجَّهة للبرهان عمّا إذا كانت تعرف ما كنَّ يعرفن، ما إذا كانت تتذكّر ما يتذكّرنه. فيخلِّف هذا عندها انطباعاً غريباً لن يُغادرها أبداً:

بإهمالهنّ لما عاشته في الغربة تماماً، بدأن ببتر عشرين سنة من حياتها. الآن وبهذا الاستجواب يحاولن أن يحبكن ماضيها القديم مع حياتها الحالية. كما لو أنّهنّ بترن ذراعها ووضعن اليد مباشرة في المرفق، كما لو أنّهن بترن ربلتي ساقيها وربطن ركبتيها إلى قدميها.

مذهولة من هذه الصورة، لم تتمكّن من الإجابة على أسئلتهنّ؛ ومن جهةٍ أخرى فإنّ النساء لا ينتظرن منها أن تفعل ذلك، ثمَّ يعدنَ وهنَّ في كلِّ مرّة أكثر سكراً إلى قَرْقَهنّ الذي تبقى إرِنا معزولة عنه. تراهنَّ يفتحن أفواههنّ في وقتٍ واحدٍ، أفواهاً تتحرّكُ، تُطلق كلماتٍ ولا تتوقّف عن الضحك (لغز: كيف تستطيع نساءٌ لا يُصغي إليهنّ يضحكن؟). ما من واحدة منهنَّ توجّه الآن الكلام إلى إرِنا، لكنّهن جميعاً يبدين متألّقاتٍ وحسنات المزاج، تبدأ المرأة الأولى التي طلبت البيرة تُغنّي، الأخريات يردّدن خلفها، ويتابعن غناءهنَّ حتى في الشارع بعد أن انتهت الحفلة.

في الفراش تراجع إرِنا السهرة؛ فيعود إليها حلمُ المُهاجرة القديم من جديد، وترى نفسها مُحاطة بنساء صاخبات وحميمات يرفعن أباريقَ بيرتهنَّ. هنّ في الحلم يعملن في خدمة الشرطة

السرّية ومعهنّ أمر بالقبض عليها. لكن في خدمة من كانت نساء اليوم؟ «حان الوقت كي تعودي»، قالت لها رفيقتها القديمة في المدرسة بأسنانها المُروَّعَة. مثل مبعوثة المقابر (مقابر وطنها) كانت المُكلَّفة بدعوتِها إلى النظام: حتى تنتبه إلى أنّ الزمن يشدّد الخناقَ وأن الحياة يجب أن تنتهي حيث بدأت.

تبدأ بعد ذلك في التفكير بميلادا التي أظهرت ودَّ أمٍّ نحوها، والتي منها عرفت أنّ أوديستها لا تهم أحداً، فتقول إرِنا لنفسها إنّ ميلادا لم تهتمّ بها أيضاً. وكيف ستواجهها بذلك. لماذا ستهتمّ بشيء ليس له أيّ علاقة بحياتها؟ لو فعلت ذلك لكان مجاملة منافقة ولفرحت إرِنا لأنّ ميلادا كانت بهذا اللطف دون أيّ ملمح تمثيلي.

آخر تفكير لها قبل أن تنام كان لسيلفي. إنها منذ زمن طويل لا تراها! تشتاق إليها! وتودّ إرِنا أن تدعوها إلى فنجان قهوة وتحكي لها عن آخر أسفارها عبر بوهيميا. أن تجعلها تُدرك صعوبة العودة. ومن جهة ثانية كانت تتصوّر أنّها تقول لها كنتِ أنتِ، أوّل من نطق بهذه الكلمات: العودة الكبرى. وهل تدرين، ياسيلفي؟ اليوم فهمتُ: باستطاعتي أن أعيش من جديد بينهم، لكن بشرط أن أضع كلّ الذي عشته معك، معنا، مع الفرنسيين، على مذبح الوطن وأضرم فيه النار. عشرون عاماً من عمري في الغربة ستصبح دخاناً خالصاً خلال حفلٍ مقدّسٍ. وستغنّي النساء ويرقصن معي حول النار، رافعات أباريقَ بيرتهنّ. إنّه الثمن كي يغفرن لي. كي أصبح مقبولة. كي أعود وأصبح واحدة منهنّ.

12

في مطار باريس، وبعد أن اجتازت حاجز تفتيش الشرطة ذهبت إرِنا إلى قاعة الانتظار لتجلس. رأتْ على مقعدٍ أمامها رجلاً، وبعد ثانيتين من التردّد والمفاجأة عرفته. في أوج الازدحام أمِلت

أن تتقاطع نظراتهما فابتسمت. هو أيضا ابتسم وحنى رأسه بشكلٍ خفيف. نهضت ومضت نحوه فنهض بدوره.

ـ تعارفنا في براغ، أليس صحيحاً؟ ـ قالت له بالتشيكية ـ هل تذكرني؟

ـ طبعاً.

ـ عرفتك على الفور. لم تتغيّر أبداً.

ـ تبالغين قليلاً، أليس كذلك؟

ـ لا، لا. أنتَ كما كنتَ في السابق. يا إلهي! كم من الزمن مرّ! ـ ثمّ تتابع ضاحكةً ـ : أشكرك لأنّك عرفتني! ـ وعلى الفور ـ : هل بقيتَ كلّ هذا الوقت هناك؟

ـ لا.

ـ هل هاجرتَ؟

ـ نعم.

ـ وأين عشتَ؟ في فرنسا؟

ـ لا.

تنهّدت.

ـ تصوّر أنّك عشتَ في فرنسا وأنّنا لم نلتقِ إلاّ اليوم...

ـ أنا في باريس عبوراً وبمحض المصادفة. أعيش في الدانمارك، وأنتِ؟

ـ هنا في باريس. يا إلهي! لا أستطيع أن أصدّق. كيف كان الوضع معك خلال كلّ هذا الزمن؟ هل استطعت أن تمارس مهنتك؟

ـ نعم، وأنتِ؟

ـ اضطُرِرت لأن أمارس سبعاً على الأقل.

ـ لن أسألك كم رجلاً ملكتِ.

ـ لا، لا تسألني. أعدك بأنّني أيضاً لن أسألك مثل هذه الأسئلة.

ـ والآن. هل عدتِ؟
ـ ليس كلّياً. أحتفظ بشقّتي في باريس. وأنت؟
ـ أيضاً لا.
ـ لكنّك تعود إلى هناك باستمرار.
ـ لا. إنّها المرّة الأولى ـ قال هو.
ـ يعني أنّك تأخرتَ كثيراً... لم تستعجل على الإطلاق.
ـ لا.
ـ أليس عندك أيّ التزام في بوهيميا؟
ـ أنا رجلٌ حرٌّ تماماً.

قال هذا ببطء وبنبرة من الحزن لم تفلت منها.

في الطائرة كان من نصيبها مقعد في القسم الأمامي من الممر، والتفتت مراتٍ كثيرةً كي تنظر إليه. لم تنس قط ذلك اللقاء البعيد معه. حدث ذلك في براغ، حين ذهبت مع مجموعة من الأصدقاء إلى أحد البارات؛ وهو، الذي كان صديقَ أصدقاء لها، لم يتوقّف عن النظر إليها. قصّة حبّ مبتورة قبل أن تبدأ. حزنت هي وبقي هو مثل جرحٍ لم يندمل قط.

ذهب مرّتين ليستند إلى مقعدها بجانب الممر ويتابع الحديث. فعلمت أنّه لن يقضِي في بوهيميا إلاّ ثلاثة أو أربعة أيّامٍ وفي مدينة ريفيّةٍ كي يرى أسرته. أسِفت لذلك. ألن يبقى ولا يوماً واحداً في براغ؟ نعم، ربّما يوماً أو يومينِ قبل عودته إلى الدانمارك. هل يستطيعان أن يلتقيا؟ سيكون شيئاً طريفاً أن يعودا ليلتقيا. أعطاها اسم الفندق الذي سينزل به في المدينة الريفيّة.

13

هو أيضاً سعِد بهذا اللقاء؛ وهي أظهرت ودّاً، غنجاً ولطفاً، وجمالاً في الأربعين، وهو لم يكن يملك أدنى فكرة عمّن تكون.

عادة ما يكون مزعجاً أن تقول لشخص بأنك لا تتذكّره، لكنّه في هذه المرّة كان إزعاجاً مُضاعَفاً، لأنّ المسألة ليست في أنّه نسيها وحسب، بل وفي أنّه لا يعرفها. والاعتراف بشيء مثل هذا لامرأة فِعلة شنيعة ليس قادراً على فعلها. ومن جهةٍ أخرى أدرك بسرعةٍ أن المجهولةَ لا يمكنها أن تعرف ما إذا كان قد تذكّرها أم لا وأنّه لم يكن هناك أسهل من الحديث معها. لكن في اللحظة التي التزما فيها بأن يعودا ليلتقيا وأرادت هي أن تُعطيه رقم هاتِفها شعر بعدم الراحة: كيف سيهتف لشخص لا يعرف اسمه؟ ثمّ قال لها دون أن يُقدّم توضيحات، إنّه يُفضّل أن تهتفَ هي له وطلب منها أن تُسجّل رقم الفندق في مدينته الريفية.

افترقا في مطار براغ. استأجر سيّارةً، خرج إلى الأوتوستراد ثمّ انحرف في طريق ثانوي. حين وصل إلى المدينة بحث عن المقبرة. عبثاً فعل، فقد وجد نفسه في حيّ جديد ذي أبنية عالية وموحّدة حلّت محلّها. رأى طفلاً في العاشرة من عمره تقريباً، فأوقف السيّارةَ وسأله كيف يمكن الوصول إلى المقبرة. نظرَ الطفل إليه دون أن يجيبه. وحين ظنّ أنّه لم يفهم عليه نطق سؤاله ببطء أكبر وصوتٍ أعلى، مثل أجنبي يُجهِد نفسه بلفظ ما يقوله جيّداً. انتهى الطفل بإجابته بأنّه لا يعرفُ. لكن كيف يمكن أن يكون هناك من لا يعرف أين تقع المقبرة الوحيدة في المدينة؟ أقلع بسيّارته وسأل مارّةً آخرين. لكنّ توضيحاتهم بدت له غير مفهومة. أخيراً وقع عليها: كانت معلّبة خلف قناطر ساقية ماء بنيت حديثاً، وقد بدت متواضعة وأصغر من السابقة بكثير.

ركن سيّارته وسار عبر ممر من الزيزفون حتى القبر. هناك رأى منذ ثلاثين عاماً التابوت ينزل وفيه جثمان أمّه. كان قد عاد إلى هناك مراراً في كلّ زيارة قام بها إلى مسقط رأسه. حين كان يُحضِّر لهذه الإقامة في بوهيميا، كان يعرف أنّه سيبدأ من هناك. نظر إلى الشاهدة. كان المرمر قد امتلأ بالأسماء: يبدو أن القبر

تحوّل خلال ذلك إلى مهجع كبير. لم يكن بين الممر المحفوف بالأشجار والشاهدة غير شجرة سرو واحدة معتنى بها جيّداً وروض من الزهر. حاول أن يتصوّر التوابيت عند قدميه: لا بد أنّ الواحد منها بجانب الآخر في صفوف من ثلاثة توابيت موضوع بعضها فوق بعض في عدّة مستويات. الأم في أسفلها جميعاً. أين أبوه، يا ترى؟ بما أنّه مات بعد خمسة عشر عاماً، لا بدّ أنّه مفصولٌ عنها بصفّ واحد من التوابيت على الأقل.

عاد ورأى جنازةَ أمّه. في تلك المرحلة، في الأسفل كان يرقد ميتان فقط: والدا أبيه. وعندئذٍ بدا له من الطبيعي أن تكون أمّه قد هبطت إلى حيث حمويها، ولم يسأل نفسه ما إذا كانت قد فضّلت أن تذهب لتنضمّ إلى أبويها. أدرك ذلك متأخراً جدّاً: إن توزيع الموتى في القبور العائلية يُقرّر قبل وقت طويل حسب القوة؛ وأسرة أبيه كانت أكثر عدداً من أسرة أمّه.

أربكه عدد الأسماء الجدد على الشاهدة. بعد عدّة سنواتٍ من رحيله علم بموت عمّه، ثمّ عمّته ثمّ أبيه. قرأ الأسماء بكثيرٍ من الانتباه؛ بعضها لأشخاصٍ كان يظنّهم حتى ذلك الوقت أحياء. مكث كأنّه مذهول. لم يشوّشه موتاه (من يقرّر أن يهجر بلده عليه أن يستسلم إلى أنّه لن يرى أسرته من جديد)، بل ما شوّشه هو أنّه لم يتلقَ أيّ خبر. كانت الشرطة الشيوعية تراقب الرسائل الموجّهة إلى المُهاجرين؛ ترى هل خافوا أن يكتبوا له؟ أمعن في التواريخ: الميتان الأخيران ووريا الثرى بعد العام 1989. وبالتالي فهم انقطعوا عن الكتابة ليس لمجرّد الحكمة. الحقيقة كانت أسوأ من ذلك: إنه بالنسبة إليهم لم يعد موجوداً.

14

كان الفندق قد بُني خلال سنوات الشيوعية الأخيرة: بناء حديث

في الساحة الكبرى، أملس، مماثل للفنادق التي كانت تُبنى في العالم في تلك السنوات، عال جدّاً يُهيمن بدءاً من طوابق كثيرة في الأعلى على سطوح المدينة. نزل في غرفته في الطابق السادس. ثم اقترب من النافذة. كانت الساعة السابعة مساءً والغروب يتلاشى، والأنوار تشتعل والساحة هادئة بشكل غير معقول.

قبل مجيئه كان قد جهّز نفسه لمواجهة الأماكن المعروفة، حياتِه الماضية، وسأل نفسه: هل سأتأثّر؟ هل سأكون لا مبالياً؟ هل سأفرح؟ هل سأنقبض؟ على الإطلاق. خلال غيابه كنست مكنسةٌ مشهدَ شبابه، ماحية كل ما كان مألوفاً؛ والمواجهة التي كان يتوقّعها لم تحدث.

منذ زمن طويل زارت إرِنا مدينة فرنسية ريفية بحثاً عن الراحة لزوجها الذي كان قد اشتدَّ عليه المرض. كان يومَ أحدٍ والمدينة ساكنة، توقّفوا على جسر ونظروا إلى الماء يجري رائقاً بين ضفّتين وارفتي الأشجار، عند منعطف النهر بيت ريفي محاط بحديقة، بدا لهما أنّه صورة المنزل الآمن مثل حلم رعويّ ماضٍ. هبطا مأخوذين بذلك الجمال درجاً يفضي إلى الضفّة، توّاقين للتنزه. بعد خطوات قليلة أدركا أنّ سلام الأحد قد خدعهما: كان هناك آلات، جرّارات، أكوام من التراب والرمل؛ وعلى الجانب الآخر من النهر أشجار مُقتلعة؛ والبيت الريفيّ، الذي شدّهما جماله من الأعلى كان محطّم الزجاج ومكان الباب فجوة كبيرة، وخلفه بناء مرتفع من عشرة أدوار تقريباً؛ ليس لهذا السبب ما عاد جمال المشهد العمراني الأنيس الذي سحرهما وهماً بصريّاً؛ بدا عبر خرائبه موطوءاً، مهاناً، مضحوكاً منه. ومرّة أخرى استراحت نظرةُ إرِنا على الضفّة الأخرى ولاحظت أنّ الأشجار الضخمة مقتلعة، - كانت مزهرة! - مقتلعة، مرميّة، كانت حيّة! في تلك اللحظة انفجرت موسيقى صاخبة من بعض مكبرات الصوت، وحين تلقت تلك الضربة

الهائلة حملت يديها إلى أذنيها وانفجرت بالبكاء. بكاء على عالم يختفي أمام عينيها. فأخذها زوجُها الذي سيموت بعد أشهرٍ قليلةٍ من يدها ومضى بها.

المكنسة العملاقة الخفيّة، التي تُبدِّل وتشوّه وتمحو مشاهدَ، تعمل منذ آلاف السنين، لكنّ حركتها، البطيئة في الماضي، التي كانت لا تكاد تُدرَك، تسارعت إلى حدّ أنّني أتساءل ما إذا كانت الأوديسة معقولة. هل ما زالت ملحمة العودة تنتمي إلى عصرنا؟ في الصباح، حين استيقظ عوليس على شاطئ إيثاكا هل كان سيسمع مشدوهاً موسيقى العودة الكبرى لو أنّهم اقتلعوا شجرة الزيتون القديمة ولم يستطع أن يعرف شيئاً من حوله؟

بالقرب من الفندق، يُظهرُ بناءٌ شاهقٌ جداره المتوسّط عارياً، إنّه جدار مُصمت ومزخرف برسم هائل. الظلّ الشديد جعل النقوش غير واضحة، وجوزيف لم يميّز إلاّ يدين متشابكتين، يدين هائلتين بين السماء والأرض. هل هما منذ البداية هناك؟ لم يتذكّر.

بينما كان يتناول عشاءه وحيداً في مطعم الفندق كان يسمع من حوله الأحاديث. إنّها موسيقى لغة مجهولة. ما الذي حدث للتشيكي على امتداد هذين العقدين البائسين؟ هل بدّلَ النبرة؟ ظاهرياً نعم. إذا كانت تقع بتأكيدٍ على المقطع الأوّل فقد فقدت الآن بعضاً من قوّتها، النبرة صارت جوفاء، واللحن يبدو رتيباً أكثر من قبل كأنّه يتجرجر. والجرس! صار أنفيّاً؛ الأمر الذي يُضفي على اللغة نغمةً مزعجة ومملّة. ربّما وعبر القرون تتحوّل موسيقى اللغات بطريقة غير محسوسة، لكنّ من يعود بعد غياب طويل يبقى مشوّشاً: كان جوزيف المنحني فوق صحنه يسمع لغة مجهولةً ومع ذلك يفهم كلّ كلمة من كلماتها.

بعد ذلك في غرفته رفع سماعة الهاتف وشكّل رقم أخيه. سمع صوتاً فرحاً دعاه للذهاب على الفور.

ـ فقط أردت أن أعلن لك عن عودتي ـ قال جوزيف ـ اعذرني أنّني لن أذهب اليوم. لا أريد أن ترونني على هذه الحال بعد كلّ هذه السنوات. أنا منهك. هل وقتك حرّ غداً؟

لم يكن حتى واثقاً أنَّ أخاه ما زال يعمل في المستشفى.

ـ سأجعله حرّاً ـ كان الجواب.

15

يقرع الجرس فيفتحُ له أخوه، الذي يكبره بخمس سنوات، البابَ. يشدّان على أيدي بعضهما ويتبادلان النظرات. إنّها نظرات ذات كثافة هائلة ويعرفان بماذا تتعلّق: وجهاً لوجهٍ يستعرِضُ الأخوان بسرعةٍ وتحفّظ، الشَّعْرَ، التجاعيدَ، الأسنانَ، كلّ واحدٍ يبحثُ في الوجه الذي أمامَه ويعرف أن الآخر يبحث عن الشيء ذاته في وجهه. يخجلان من ذلك لأنّ ما يبحثان عنه هي المسافة المُحتمَلة التي تفصلُ الآخرَ عن الموت، أو، لو قلناه بطريقة أكثر فظاظة، يبحث في الآخر عن الموت الذي يُطلُّ. يريدان أن ينهيا هذا البحثَ المضني بأسرع ما يمكن، ويسرعان للعثور على الجملةِ التي تجعلهما ينسيان هذه الثواني المشؤومة، على استفسار، سؤال، أو إن أمكن (وستكون هديّة نازلة من السماء) على مزحة. لكن لا شيء أسعفهما ليخرجهما من الحرج.

«تعال»، يقولُ الأخُ أخيراً ويحمل جوزيف، حاضناً إيّاه من كتفيه، إلى القاعة.

16

ـ نحن بانتظارك منذ أن انهار هذا ـ قال الأخُ حين جلسا ـ.

جميع المُهاجرين عادوا، أو على الأقل تركوا أنفسهم يهبطون هنا. لا، لا، لا ألومك على شيء. أنت تعرفُ ما عليك أن تفعله.

ـ تُخطئ ـ ضحك جوزيف ـ لا أعرف.

ـ هل جئت وحدك؟ ـ سألَ الأخ.

ـ نعم.

ـ هل جئت لتُقيم؟ لزمن طويل أم لا؟

ـ لا أدري.

ـ واضح، عليك أن تتشاور مع زوجتك. تزوّجت هناك حسب علمي.

ـ نعم.

ـ من دانماركية على ما أعتقد ـ قال الأخ متكهّناً.

ـ نعم ـ قال جوزيف وصمت.

أزعج هذا الصمتُ الأخَ فسأل جوزيف لمجرّد أن يقول شيئاً:

ـ البيتُ الآن لك، أليس كذلك؟

كانت الشقّة تشكّل سابقاً جزءاً من بناية من ثلاثة أدوار تعودُ ملكيتها إلى والده، تعيشُ الأسرةُ في الدور الثاني (الأب والأم والإبنان)، وتؤجِّر البقيّة. بعد ثورة 1948 الشيوعية، انتُزعت ملكية البناية وبقيت الأسرة فيها بصفتها مستأجِرة.

ـ نعم ـ أجاب الأخُ، واضحَ الانزعاج ـ حاولنا أن نعثر عليك وكان محالاً.

ـ آه، صحيح؟ لكن عنواني عندك!

بعد العام 1989 أعيدت جميع الملكيات التي انتقلت ملكيتها إلى الدولة مع الثورة (المعامل، الفنادِق، الأبنية، الريف، الغابات) إلى أصحابها القدماء (أو بدقّة أكبر إلى أبنائهم وأحفادهم). وقد

اتخَذ هذا اسم الإعادة: كان يكفي أن يصرِّحَ أحدٌ بملكيته لشيءٍ أمام العدالة كي يُعاد إليه بشكلٍ قطعيّ بعد مضيّ عامٍ حيث يمكن الاعتراض. هذا التبسيط القضائي أفسح المجالَ لكثيرٍ من الاحتيالات، لكنّه جنّب الناسَ إجراءات الإرث والطعن والاستئناف، وولّد في زمن قصير بشكلٍ مُدهِش مجتمعاً طبقيّاً، فيه برجوازية غنيّة جسورة وقادرة على الشروع باقتصاد البلد.

«كان هناك محامٍ أخذ كلَّ شيء على عاتقه» أجاب الأخُ الذي ما زال منزعجاً. «الآنَ صار متأخراً جدّاً. انتهت المرافعات. لكن لا تهتمّ، سنسوّي الأمر أنت وأنا دون مُحامين».

دخلت في هذه اللحظة زوجة أخيه. لم تحدث مواجهة بالنظرات هذه المرّة: فقد شاخت إلى حدّ أن كلّ شيء كان واضحاً ما أن ظهرت في الباب. رغب جوزيف بخفض رأسه كيلا ينظر إليها بطرف عينه حتى تمضي عدّة دقائق، كيلا يجرحها. ثم نهضَ أسيرَ الشفقة ومضى نحوها وعانقها.

عادا وجلسا. نظر إليها جوزيف دون أن يتمكّن من التخلّص من التأثّر. لو التقى بها في الشارع ما كان ليعرفها. إنّهما أقرب الكائنات إليّ، قال لنفسه، هما أسرتي، أسرتي الوحيدة المتبقية لي، أخي، أخي الوحيد. كان يُردِّدُ هذه الكلمات، كما لو أنّه يريد أن يطيل تأثّره قبل أن يختفي.

أجبره هذا التأثّر على قول:

- انسَ موضوع البيت نهائيّاً. اسمعني، لنكنْ عمليين. أن يوجد شيء لي هنا لا يعني أيّ مشكلة بالنسبة إليّ. مشاكلي ليست هنا.

قال الأخُ الذي تنفّس الصعداء:

- لا،لا. أحبّ أن أكونَ عادلاً في كلِّ شيء. ثمّ لا بدّ أنّ عند زوجتك ما تقوله.

ـ لنتكلّم عن شيء آخر ـ قال جوزيف واضعاً يده على يدِ أخيه وضاغطاً عليها.

17

حملاه لزيارة البيت كي يطلعاه على التغييرات التي تمّت به بعد رحيله. رأى في إحدى الغرف لوحةً كان يملكها. اضطُرَّ بعد أن قرَّرَ مُغادرة البلد أن يتحرّك بسرعة. كان يعيش وقتذاك في مدينة ريفية فلم يستطِع، وهو مُجبر على الإبقاء على نيّته بالهجرة سرّية، أن يوزِّع ممتلكاته على أصدقائه. لكن قبل يومٍ واحد من ذهابه وضع المفاتيح في مُغلَّفٍ وأرسلها إلى أخيه. وحين أصبح في الخارج هتف له، رجاه أن يأخذ من شقّته كلّ ما يناسِبه قبل أن تُصادرِها الدولةُ. ثم وبعد أن استقرّ سعيداً في الدانمارك وشرع حياة جديدة، لم يملك أدنى رغبةٍ بالتأكّد مما استطاع أخوه إنقاذه أو فِعله بتلك الأشياء.

نظر إلى اللوحة طويلاً: إنها تمثل حيّاً صناعياً من أحياء الناس الفقراء، معالجة بفانتازيا من ألوان جسورة تُحيل إلى رسامي بدايات القرن الفابيين، مثل دريان. ومع ذلك لم تكن اللوحة خليطاً غير منسجمٍ؛ ولو أنّهم عرضوها في العام 1905 في قاعة الخريف في باريس إلى جانب لوحاتٍ فابيّة أخرى لفوجِئَ العالمُ كلّه بغرابتها، مأخوذين بمظهرٍ غامض لزائر يأتي من مكان قصيّ. عملياً تعودُ اللوحة إلى العام 1955، وهي المرحلة التي كانت تستلزم فيها العقيدةُ الاشتراكية صرامةً في الواقعية: كان الرسام محبّاً شغوفاً للحداثة وفضّل أن يرسم كما كانوا يرسمون في جميع أنحاء العالم آنذاك، أي على الطريقة التجريدية، لكنّه لم يبغِ أن يمتنع عن عرض أعماله؛ كان عليه أن يجد النقطة العجيبة التي يُخضِع فيها متطلبات الإيديولوجيين لقالب رغباته كفنّان؛ كانت الأكواخ التي

توحي بحياة العمّال هي الضريبة التي يُقدّمها للإيديولوجيين، والألوانُ غير الواقعية بشكل صارخ هديّته التي يُقدّمها لنفسه.

كان جوزيف قد زار مرسمه في الستينات، في فترة بدأت فيها العقيدة الرسمية تفقدُ قوّتها والرسّام أصبح حرّاً إلى هذا الحدّ أو ذاك في أن يفعل ما يريد. جوزيف الصريح بشكل ساذج فضّل تلك اللوحة القديمة على اللوحات الجديدة. والرسام الذي كان يشعر نحوه بميل مشوبٍ بالتسامح أهداها إليه دون أيّ أسف، بل وأضافَ إلى توقيعه إهداءً باسم جوزيف.

ـ عرفتَ هذا الرسامَ جيّداً ـ علّقَ الأخ.

ـ نعم، أنقذت كلبَه «الكانيش».

ـ هل ستذهب لرؤيته؟

ـ لا.

بعد عام 1989 استلم جوزيف في الدانمارك رزمةً من صورِ أعمال الفنّان الجديدة، رسمها هذه المرّة بحرّية تامّة: لم تكن تختلف عن ملايين اللوحات التي كانت تُرسم آنذاك على الكوكب؛ وصار باستطاعة الرسامِ أن يتباهى بانتصار مزدوج: فقد كان حرّاً تماماً ومماثلاً تماماً لكلّ العالم.

ـ هل ما زالت تُعجبك هذه اللوحة؟ ـ سأل الأخ.

ـ نعم، ما زالت جميلة جدّاً.

أشار الأخ برأسه إلى زوجته:

ـ كاتي تُحبّها كثيراً. فهي تقف في كلّ يوم أمامها برهةً ـ وأضاف: في اليوم التالي لرحيلك قلت لي أن أعطّيها إلى والدنا. فوضعها فوق طاولة مكتبه في المشفى. كان يعرف كم كانت كاتي معجبة بها، فأوصى بها إليها ـ وبعد وقفة قصيرة ـ : لا يمكنك أن تتصوّر. لقد عشنا سنواتٍ مريعة.

حين نظر إلى زوجة أخيه، تذكّر أنّها لم تقع قط موقعاً حسناً في نفسه. نفوره القديم منها (ردّته إليه مُضاعفاً) بدا له غبيّاً ومؤسِفاً. كانت واقفةً، نظرتها ثابتة على اللوحة ووجهها يُعبِّر عن عجزٍ حزين، فقال جوزيف لأخيه مُشفقاً، «أعرِف».

راح الأخُ يحكي له قصّة الأسرة، احتضار الوالدِ الطويل، مرضَ كاتي، زواج الابنة الفاشِل، ثم الدسائس ضدّه في المشفى، حيث راح موقعُه يتراجع لأنّ جوزيف هاجر.

لم يقل له آخر تعليق بنبرة لوم، لكنّ جوزيف لم يشكّ بالضغينة التي لا بدّ تحدّث بها أخوه وزوجته عنه، غاضبين من عدم وجود المبرِّرات التي كان باستطاعة جوزيف أن يسوقها لهجرة هي بالنسبة إليهما غير مسؤولة: فالنظام لم يكن يجعل الحياةَ سهلة على أقرباء المُهاجرين.

18

كانت المائدة جاهزةً للغداء في غرفة الطعام. حين أراد الأخ والزوجة أن يُخبراه عن كلّ ما جرى في غيابه صار الحديث متقلّباً. حامت عقود السنين فوق الأطباق وانقلبت زوجة أخيه فجأة ضدّه: «أنت أيضاً كانت لك سنوات تعصّبك. ماذا كنت تقول عن الكنيسة! جميعنا كنّا نخافُ منك».

فاجأه التعليق. «يخافون منّي؟». وكانت زوجة أخيه تصرّ على ذلك. نظر إليها: على وجهها، الذي بدا له قبل لحظة من الصعب التعرّف عليه، أطلّت ملامح من الماضي.

القول بأنّهما خافا منه يخلو بالفعل من المعنى، لأنّ ذكرى زوجة أخيه لا يمكن أن تشير إلاّ إلى سنوات المرحلة الثانوية الأخيرة حين كان في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره. من المحتمل أن يكون قد سخر وقتذاك من المؤمنين، لكنّ لم يكن

لتلك التعليقات أيّ علاقة بالإلحاد المقاتل للنظام، وكانت موجّهة فقط ضدّ الأسرة التي لم تغب قط أحداً واحداً عن الصلاة، وهو ما أيقظ عند جوزيف غريزة الاستفزاز. حين أنهى الثانوية في العام 1951 بعد ثلاثة أعوام على الثورة، قرَّر أن يدرسَ الطبَّ البيطريَّ مدفوعاً بغريزة الاستفزاز ذاتها: كانت معالجة المرضى، خدمة الإنسانية، تشكّل اعتزازَ الأسرة الكبير (جدّه كان طبيباً قبله) وكان يرغب أن يقولَ لهم إنّه يفضِّل البقر على البشر. لكنّ أحداً لم يُدهَش أو ينتقد تمرّدَه؛ بما أن الطبَّ البيطريَّ كان يُعتَبَر من الناحية الاجتماعيّة أقلَّ مكانة، فقد فُسِّر اختيارُه بانعدام الطموح والقبول بالدور الثاني في الأسرة بعدَ أخيه.

حاول بارتباك أن يُوضّح لهما (لهما ولنفسه) سيكولوجيا المراهقة، لكنّ الكلمات لم تتخطّ فمه، لأنّ ابتسامة زوجة أخيه المجمّدة، المغروزة فيه، كانت تعبّر عن اختلاف لا يتبدّل مع كلّ ما يقوله. أدركَ أنّه ليس عنده ما يفعله، فالحالة مثل القانون: إذ أن الذين يعتبرون حياتهم كحالة غريق يخرجون لاصطياد المذنبين. وجوزيف كان مذنباً بشكل مضاعَف: فهو حين كان مراهقاً تحدّث بالسوء عن الربِّ وحين صار راشداً هاجر. لم يبق عنده أيّة رغبة بتوضيح أيّ شيء، وأخوه انحرف بالحديث بمهارة باتجاه موضوعٍ آخر.

أخوه : بينما كان يدرس سنة ثانية طبّاً بشرياً طُرد من الجامعة في العام 1948 نظراً لجذوره البرجوازية؛ وبأمل أن يعاود فيما بعد دراسته ويصبح جرّاحاً كأبيه، عمل كلَّ شيءٍ كي يُظهِرَ انتماءَه للشيوعيّة، إلى حدّ أنه انتهى قانطاً ومنهاراً بالدخول في الحزب وبقي فيه حتى العام 1989. انفصل طريقا الأخوين: الأخ الأكبر المُقصى أوّلاً عن دراسته والمجبر على التنكّر لقناعاته، تولّد لديه إحساس بأنّه ضحيّة (سيلازمه هذا الإحساس طوال حياته)؛ وفي المدرسة البيطريّة التي كانت أقل حضوراً ومراقبة لم يكن الأخ

الأصغرُ مضطرّاً ليُظهِر ولاءه للنظام: فبدا جوزيف في عيني أخيه (وسيبدو بقيّة حياته) نوعاً محظوظاً، متملّصاً يعرف كيف يخرج بما يريد.

في آب من العام 1968، غزا الجيشُ الروسيُّ البلدَ؛ فعوت شوارع جميع المدن غضباً طوال أسبوع. لم يكن البلد قط وطناً والتشيكيون تشيكيين إلى ذلك الحدّ. وجوزيف الثمل كراهيةً كان مستعدّاً لأن يلقي بنفسه ضدّ الدبابات. بعدها أوقفوا رجالَ الدولة، نقلوهم إلى موسكو، وعاد التشيكيون غاضبين إلى بيوتهم بعد أن أُجبروا على توقيعِ اتفاق مستعجل. بعد قرابة أربعة عشر عاماً، خلال الاحتفال المفروض على البلد، الذي يحيي الذكرى الخمسين لثورة أكتوبر الروسية، غادر جوزيف حيَّه الذي كانت فيه عيادته وذهب لزيارة أسرته على الجانب الآخر من البلد. عندما دخل إلى المدينة، خفَّف السرعة، كان من الطريف أن يتأكّد كم نافِذة مزيّنة بالأعلام الحمراء، ولم تكن في عام الهزيمة ذاك إلاّ علامة إذعان. كانت موجودة بل وأكثر ممّا توقّع: ربّما من وضعها فَعَل ذلك ضدّ قناعاته، بحكمة، وخوف مبهم، وإن يكن قد فعل ذلك بإرادتِه، لأنّه ما من أحدٍ كان يفرضها عليهم أو يُهدِّدهم. توقّف أمام بيت مسقط رأسه. في الدور الثاني حيث يسكن أخوه علم أحمر يرفرف بشكل مريع. بقي جوزيف يتأمله خلال دقيقة دون أن ينزل من السيارة. بعدها أقلع. في طريق العودة قرَّر مغادرة البلد. ليس لأنّه لايستطيع أن يعيش فيه، فقد كان باستطاعته العناية بالأبقار بكلّ راحة. بل لأنه كان وحيداً، مُطلَّقاً وحرّاً، دون أولاد. قال لنفسه بأنّه لا يملك غير حياةٍ واحدة ويريد أن يعيشها في مكانٍ آخر.

19

فكّر جوزيف أمام فنجان القهوة، بعد الانتهاء من طعام

الغداء، بلوحته. تساءل كيف سيحملها معه وما إذا كانت مزعجة في الطائرة كثيراً. قد يكون نزع القماش عن الإطار ولفّها عمليّاً أكثر.

كان على وشك أن يتكلّم عن المسألة حين قالت له زوجة أخيه:

- أعتقد أنّك ستذهب لرؤية «ن».

- لا أعرف حتى الآن.

- كنتما صديقين عظيمين.

- ما زال صديقاً.

- في العام 1948 الجميع كانوا يرتعدون أمامه. المفوَّض الأحمر! لقد فعل الكثير لأجلك، أليس كذلك؟ أنت مدين له!

سارع الأخ لمقاطعة زوجته، وسلّم جوزيف صرّة: «والدي احتفظ لك بها، عثرنا عليها بعد وفاته».

يبدو أنّ أخاه كان مضطرّاً للذهاب بسرعة إلى المشفى. كان اللقاء بين الأخوين على وشك الانتهاء، وجوزيف تيقَّنَ أن لوحته غابت عن الحوار. كيف! إذن زوجةُ أخيه تتذكّر صديقه «ن». لكنّها تنسى اللوحة؟ ومع أنّه كان مستعداً للتنازل عن كلّ ما ورثه، وحصّته من البيت، إلاّ أنّ اللوحة تعود له ولا تعود إلاّ له وحده، باسمه المكتوب بجانب توقيع الرسّام!

صار الجوّ أكثر توتّراً وخطر لأخيه أن يحكي شيئاً طريفاً. لم يكن جوزيف يستمع إليه. قرّر أن يُطالبه باللوحة، وبينما هو يركّز على ما سيقول وقع بصره على مِعصِم أخيه وساعته. عرفها: كبيرة، سوداء، ذهبت موضتها، تركها في شقّته والأخُ سطا عليها. لا، لم يكن عند جوزيف من سبب كي يغضب. فكلُّ شيء تمّ حسب تعليماته، ومع ذلك فإنّ رؤيته لساعته في مِعصم آخرَ غار به في حالة من القلق عميقة. تولّد عنده انطباع بأنّه يَلتقي بالعالم كما

يلتقي به ميتٌ يخرجُ بعد عشرين عاماً من قبره: يلامس الأرض بخطوِ مَنْ فقد عادةَ المشي؛ لا يكادُ يتعرّف على العالم الذي عاش فيه، لكنّه يتعثّر باستمرار ببقايا حياته: يرى بنطلونه، ربطةَ عنقه، على أجساد الباقين أحياء، الذين توزّعوها بكلِّ طبيعية؛ يرى كلَّ شيء ولا يُطالب بشيء: فالموتى عادة ما يكونون خجولين. وجوزيف أسيرُ خجلِ الموتى لم يملك الشجاعة لقول كلمةٍ واحدةٍ عن لوحته. نهض.

«عُدْ هذه الليلة لنتناول العشاء معاً»، قال له أخوه.

فجأةً رأى جوزيف وجهَ زوجته نفسها؛ شعر بالحاجة الملحّة للتوجّه إليها، للكلام معها. لكنه لم يستطع: كان أخوه ينظر إليه منتظراً جوابه.

«اعذرني، فوقتي ضيق جدّاً. سنلتقي مرّة أخرى»، وشدّ على يديهما بألفة.

في الطريق إلى الفندق عادَ وجهُ زوجته ليظهر له فحنق: «إنّها خطيئتُكِ. أنتِ من قالَ إنّ عليَّ أن آتي. لم أكن أريد. لم يكن عندي أيّ رغبة بالعودة. لكنّكِ لم توافقي. فعدم المجيء بالنسبة إليك كان أمراً غير طبيعي، غير مبرَّر، بل ومستنكراً. هل ما زلت تعتقدين أنّكِ على حقّ؟».

20

ما أن صار في الغرفة حتى فتح الصرّةَ التي أعطاها له أخوه، كان فيها مجموعة صور من طفولته: أمّه، أبوه، أخوه، وفي كثير منها جوزيف الصغير؛ فيتركها جانباً ليحتفظ بها. وفيها كتابان مصوَّران للأطفال؛ يرمي بهما في سلّة المهملات؛ ورسم طفل ملوّن، وإهداء: «إلى أمّي في عيد ميلادها»، وتوقيعه وضع بارتباك؛

فيرمي به أيضاً. ثمّ دفتر. يفتحه: يومياته حين كان يدرس الثانوية. كيف انتهى به المطاف إلى بيت أبويه؟

الملاحظات مؤرّخة في أيّام الشيوعية الأولى، لكنه ـ وهنا نالَ فضوله خيبة أمل صغيرة ـ لا يجد فيها غير وصف لمواعيد مع فتيات في المدرسة. بالغٌ صفيق؟ لا: شابٌ بِكرٌ. يُقلّبه بشرودٍ، يتوقّفُ عند بعض اللوم الذي وجّهه لفتاة: «قلتِ لي إنّه لا اعتبار في الحب إلاّ للشهواني. يا نانا لو أنّ رجلاً اعترف لك أنّه لا يرغب منك إلاّ بجسدك، لخرجت راكِضةً. ربّما ستُدركين عندئذٍ كم هو مريع الإحساس بالوحدة».

الوحدة. تعاوِده هذه الكلمة باستمرار. كان يُحاوِل أن يُخيف الفتيات راسماً لهنّ منظور الوحدة المريع. كي يحببنه، كان يعظهنّ مثل راهب: الجنس دون مشاعر يمتدُّ مثلَ صحراءٍ يموت فيها المرءُ اكتئاباً.

يقرأ ذلك ولا يتذكّر شيئاً. ما الذي جاء ليقوله له هذا المجهول؟ هل ليذكّره بأنّه في ذلك الحين عاش هنا مع اسمه؟ ينهض جوزيف ويتجه إلى النافذة. لم تكن الساحة مضاءة إلاّ بشمسِ الغروب المتأخر، صورة اليدين المتشابكتين على الجدار الأوسط هذه المرّة مرئيّة تماماً: واحدة بيضاء، وأخرى سوداء. وفوقهما علامة من ثلاثة حروف تَعِد بـ «الأمن» و «التضامن». ما من شكّ أنّ هذا رُسِم بعد العام 1989 ، حين تبنّى البلدُ شعارات الأزمنة الجديدة: أخوّة بين جميع الأعراق؛ امتزاجٌ بين جميع الثقافات؛ وحدة بين كلّ الأشياء، ووحدة بين الجميع.

كم مرّة رأى جوزيف لافتاتٍ بأيدٍ متشابكة! العامل التشيكي يُصافح يدَ جنديٍ روسي! على الرغم من أن تلك الصورة الدعائية كريهة إلاّ أنّها تشكّلُ جزءاً لا جدل فيه من تاريخ التشيكيين، الذين

كان لديهم آلاف الأسباب، سواء من أجل مصافحة اليد أو من أجل رفضها عند الروس أو الألمان. لكن يدٌ سوداء؟ في هذا البلد لا يكاد الناس يعرفون أنّه يوجد زنوج. أمّه لم تر زنجيّاً واحداً في حياتها.

ينظر إلى اليدين العالقتين بين السماء والأرض، هائلتين ، أكبر من برج الكنيسة؛ يدان عادتا لتضعا ذلك المكان في زخرفة مختلفة بشكل قاسٍ. يتفحّص الساحة تحت قدميه مطوّلاً كما لو أنّه يبحث عن الآثار التي خلّفها على الأرض حين كان شابّاً يتنزّه هناك مع زملاء دراسته.

«زملاء الدراسة» يلفظ هذه الكلمةَ ببطء، بصوتٍ خافت قليلاً، كي يستنشق عطر شبابه الأوّل (المنطفئ، غير المحسوس تقريباً) عطر ذلك الزمن الماضي، المفقود، الزمن المهجور، الحزين كميتم، لكنّه على العكس من إرنا في تلك المدينة الريفية الفرنسية، لا يشعرُ بأيّ عاطفة تجاه هذا الماضي، الذي يُطلّ عليه عاجزاً؛ ما من رغبة بالعودة؛ مجرّد احتياط خفيف، نفور.

لو كان طبيباً لَكَتَبَ عن الحالة التشخيص التالي: «المريض يُعاني من نقصٍ في الحنين».

21

لكنَّ جوزيف لا يعتقد بأنّه مريض. يعتقد أنّه سليم العقل. النقص بالحنين برهان على القيمة القليلة التي لحياته الماضية عنده. أُصحّحُ تشخيصي إذن: «يُعاني المريض من تشوّهٍ مازوخيٍّ في الذاكرة». بالفعل لا يتذكّر عن نفسه إلاّ الحالات التي تزعجه. لكن ألم يحصل في طفولته على كلّ ما كان يرغب به؟ ألم يُبَجِّلَ أبوه من جميع مرضاه؟ لماذا يشعر أخوه بالاعتزاز بذلك وهو لا؟ كان يختصم كثيراً مع زملائه ويتشاجر كشجاع. الآن نسي كلّ

انتصاراته وبالمقابل فإنّ الشيء الوحيد الذي سيتذكّره دائماً هو تلك القصّة التي رماه فيها زميل له، كان يعتبره ضعيفاً، بظهره على الأرض وأبقاه هكذا عشر ثوانٍ معدودات بصوتٍ عالٍ. ما زال حتى اليوم يشعر بضغط الأرض المهين في ظهره. حين كان يعيش في بوهيميا ويلتقي بأحدٍ عرفه من قبل، كان يُفاجأ دائماً بأنّهم يعتبرونه شخصاً أقرب إلى الشُجاع (بينما يرى هو نفسَهُ جباناً) شخصاً لوذعيّاً (ويظنُّ نفسَهُ مضجراً) وشخصاً طيّباً (وهو لا يتذكّر غيرَ بؤسه).

كان يعرف جيّداً أنَّ ذاكرته تمقتُه، ولا تفعل شيئاً آخرَ غير الافتراء عليه؛ وبالتالي فقد جهد كيلا يعطيها مصداقية ويصبح أكثر تسامحاً مع حياته. لكن دون نتيجة: لم يكن يشعر بأيّة لذة بالنظر إلى الخلف وكان يفعل ذلك بأقل ما يمكن.

هجر البلدَ، كما أراد أن يُقنع الآخرين ويُقنع نفسه معهم، لأنّه لم يعد يحتمِلُ رؤيتَهُ خاضعاً مُهاناً. ما يقوله صحيح، لكنّ التشيك في معظمهم كانوا يشعرون بالشيء ذاته، خاضعين مهانين ولم يذهبوا راكضين إلى الخارج. بقوا في بلدهم، لأنّهم يُحبّون أنفسهم ولأنّهم يُحبّون أنفسهم مع حياتهم، غير منفصلين عن المكان الذي ترعرعوا فيه. وبما أنّ ذاكرته كانت شريرة ولا تقدّم له شيئاً من حياته مرغوباً به في بلده، عَبَرَ الحدود بخطوات خفيفة ودون ندم.

هل فقدت ذاكرتُه ذلك التأثير الضار ما أن أصبح في الخارج؟ نعم؛ لأنّ جوزيف لم يملك هناك الوقت للاهتمام بذكرياته المتعلقة ببلده، الذي ما عاد يعيش فيه. إنّه قانون الذاكرة المازوخية: مع تتالي سقوط المراحل المختلفة من حياة الكائن البشريّ في النسيان فإنّه يزيح عن كاهله كلّ ما يُحبّه، فيشعر بنفسه أكثر رشاقة وأكثر حرّية.

كان أكثر ماتجلى عشق جوزيف في الغربة، والعشق تمجيد

للحاضر. والتصاقه بالحاضِر أبعد الذكريات، حماه من تدخّلاتها، وما عادت ذاكرته خبيثةً، بل أكثر إهمالاً وفقدت هيمنتها عليه.

22

كلّما كان الزمن الذي نُخلِّفه وراءنا أكبر كلّما أصبح الصوت الذي يحثّنا على العودة لا يُقاوَم؛ يبدو هذا الحكم مبدءاً عامّاً، لكنّه مزيّف. فالكائن البشريُّ يشيخ والنهايةُ تقترِبُ، فتصبح كلُّ لحظة ثمينة ولا يعود هناك وقت يُضَيَّعُ على الذكريات. يجب فهم التناقض الرياضي الظاهري للحنين: يظهر هذا بقوّة أكبر في مرحلة الشباب الأولى، حين يكون حجم الحياة الماضية زهيداً.

في ضباب الزمن الذي درس فيه جوزيف الثانوية أرى فتاة تبرز؛ إنّها رشيقة، جميلة، عذراء وحزينة لأنّها انفصلت توّاً عن فتىً آخر. إنّها أوّل قطيعةٍ لها في الحبّ وهي تُعاني، لكنّ أَلَمَها أقلُّ حدّة من دهشتها أمام اكتشاف الزمن، إنها تَراهُ كما لم تَرَهُ من قبل قط.

تكشّف لها الزمنُ حتى ذلك الوقت حاضِراً يتقدّم ويبتلع المستقبل، كانت تخافه وهو يتقدّم بسرعة (إذا كانت تتوقّع شيئاً سيّئاً) أو تتمرَّد حين يُصبِحُ بطيئاً (إذا كانت تنتظر شيئاً حسناً). لكنّ الزمن يتكشّف لها الآن بشكلٍ مختلِفٍ جدّاً؛ ما عاد الأمر يتعلّق بحاضِرٍ منتصِرٍ يستولي على المستقبل، بل بحاضِر مهزوم، أسيرٍ، يحمله الماضي. إنها ترى فتىً يبتعد عن حياتها، يذهب، يختفي إلى الأبد. ومذهولة لا تستطيع أن تنظر إلاّ إلى ذلك الجزء من حياتها الذي يبتعد، مذعنة للنظر إليه وللألم. فتختبر إحساساً، جديداً تماماً، يُسمّى الحنين.

هذا الإحساس، هذه الرغبة القاهِرة بالعودة تتكشف لها فجأةً

عن وجود الماضي، سطوة الماضي، ماضيها. في بيت حياتها ظهرت نوافِذ، نوافِذ مفتوحة على الخلف، على ما عاشته؛ وما عادت تتصوّر وجودها دون هذه النوافِذ.

وذات يومٍ سعيد ومع حبٍّ جديد (أفلاطوني بالطبع) تسير في درب الغابة القَريبة من مدينتها؛ على هذا الدرب ذاته كانت قد تنزّهت قبل أشهر مع حبيبها السابق (ذاك الذي بعد القطيعة أيقظ عندها حنينها الأوّل) فتثير هذه المُصادَفَة عاطفتها. عمداً تتَّجه إلى كنيسة صغيرة خربةٍ على مفترق طريقين في الغابة، فهناك حاول حبّها الأوّل أن يُقبِّلها. إغواءٌ جَموح يحثُّها على أن تعود وتعيش الحبَّ الماضي. تتمنّى لو تتقاطع قصّتا الحب، تتآخيان، تمتزجان، تتناغيان وتكبران منصهرتين.

حين حاول حبُّ ذلك الوقت في هذا المكان أن يتوقّف ليُعانِقها، سارعت خطوها ومنعته سعيدة ومرتبكةً. ما الذي كان يجري هذه المرّة؟ حبُها الحالي يخفِّف من السرعة. هو أيضاً يُحاوِل أن يُعانِقها! فتُذعِنُ لأمرِ التشابهِ مبهورةً بالتكرار (بسحر هذا التكرار) وتُسارع الخطو شادّةً إيّاه من يده.

منذ ذلك الوقت وهي تترك نفسها لإغراء هذا النوع من التشابه، لهذا النوع من الاحتكاكات السريعة بين الحاضر والماضي، تبحث عن هذه الأصداء، عن هذه المطابقات، عن هذه التناغمات التي تجعلها تشعر بالمسافة بين ما كان وما هو قائم الآن، عن البعد الزماني لحياتها (الذي هو غاية في الجدّة، غاية في المُفاجأة). لديها انطباع بأنّها تخرجُ من المراهقة، تنضج، تصبحُ راشدة، وهذا يعني بالنسبة لها أنّها صارت شخصاً عنده معرفة بالزمن، شخصاً خلّفَ وراءه جزءاً من حياته ويقدرُ على الالتفات إليه ليتأمّله.

وذات يوم ترى حبَّها الجديد يجري باتجاهها بسترةٍ زرقاء

فتتذكَّرُ أنّها كانت تُحبُّ أن يرتدي حبيبُها الأوّل سترةً زرقاء. وفي يومٍ آخر حين نظر في عينيها قال لها، مستخدِماً صورة مجازية غيرَ معهودة، بأنّهما جميلتان جدّاً، فأصيبت بالذهول لأنّ حبيبها الأوّل قال لها كلمةً بكلمة الجملةَ غير المعهودة ذاتها عن عينيها. فأذهلتها هذه المُصادفات. لا تشعر أبداً بنفسها أسيرة الجمال كما يحدث حين يختلطُ حنينُها لحبّها السابق بمفاجآت حبّها الجديد. انحشار حبّ ذلك الوقت في القصّة التي تحياها لا يمثّل بالنسبة لها خيانة سرّيّة، بل يزيد من عاطفتها تجاه الذي يسير في تلك اللحظة إلى جانبها.

وحين تكبرُ سترى في مثل هذه التشابهات تماثل مؤسف في الأفراد (فلكي يُقبّلوها يتوقّفون في الأماكن ذاتها، يتشاطرون الأذواق ذاتها في اللباس، يُغازلون المرأة بالصور المجازية ذاتها). رتابة مضنية من الأحداث (التي ليست إلا تكراراً للشيء ذاته)؛ لكنّها تتبنّى هذه المصادفات في المراهقة كما لو كانت معجزة، وتشعر بنهم لفكّ رموز معانيها. فكون حبّها اليوم يشبه حبّ ذلك الوقت بشكلٍ غريبٍ يجعله أكثر استثنائية، أكثر أصالة، ويحضّها على الاعتقاد أنّه كُتِب عليها بشكل غامض.

23

لا، ليس في اليوميات أي إشارة سياسيّة. ما من إشارة واحدة إلى تلك المرحلة، اللهم إلاّ إلى تطهّريّة السنوات الأولى للشيوعية، ومثالية الحب العاطفي كستارة خلفية. يتوقّف جوزيف عند مسارّة للشاب البكر: كان عنده شجاعة سهلة لمداعبة ثديي فتاة، لكن عليه أن يتخطّى خجله الخاص كي يلمس مؤخّرتها. ويبرهن عن شعور بالدقّة: «خلال موعد البارحة لم أجروْ على لمس مؤخّرة «د» إلا مرّتين».

مرعوباً من المؤخِّرة، كان يشعر بنهمٍ في المشاعر: «تؤكِّد لي أنّها تُحبّني، وعدها بالجماع نصر لي...» (يبدو أنّ الجماع كبرهان على الحبّ كان يهمّه أكثر من الفعل الحسيّ بحدّ ذاته) «... لكنّني أشعر بنفسي خائباً: لا توجدُ نشوة في أيٍّ من لقاءاتِنا. يُرعبني تصوّر حياتنا المشتركة». ثم : «كم هو مضنٍ الوفاء حين لاينبثق عن عاطفة حقيقيّة».

نشوة؛ حياة مشتركة، وفاء، عاطفة حقيقيّة. يتوقّف جوزيف عند هذه الكلمات. ماذا يمكن أن تكون قد عنت بالنسبة إلى ذلك الشاب غير الناضج؟ كانت هائلة بقدر ما هي مبهمة، وقوّتها تكمن بالضبط في ضبابيتها. كان يبحث عن إحاسيس يجهلها، لا يفهمها؛ يبحث عنها في قرينته، (يترصّد أدنى تأثّر ينعكس في وجهها) يبحث عنها في نفسه (خلال ساعات لانهاية لها من التأمّل الداخلي)، لكنّ عدم التبدّل يُشعِرُه بالخيبة. كان قد سجّل إذ ذاك (وجوزيف يرى نفسه مُجبَراً على الاعتراف بحدّة النظر الأكيدة لهذه الملاحظة): «الرغبة بالعطف عليها والرغبة بعذابها هما رغبة وحيدة وواحدة». وبالفعل كان يتصرّف وكأنّه يترك نفسه ينقاد بهذه الجملة: بهدف الشعور بالشفقة (للوصول إلى نشوة الشفقة) كان يعمل كلّ ما هو ممكن كي يرى صديقته تتعذّب: كان يعذّبها: «أيقظتُ عندها شكاً بحبّي. سقطت بين ذراعيَّ، واسيتها، سررت بحزنها، وشعرتُ للحظة بنزر من إثارةٍ يلوح عندي».

يُحاول جوزيف أن يفهم الشابَّ البِكرَ، أن يكون مكانه، لكنّه غير قادر. تلك العاطفية الممزوجة بالسادية مناقضة تماماً لذوقه وطبيعته. فينتزع ورقةً بيضاء من اليوميات ويعود لينسخ الجملة بقلم رصاص: «سررت بحزنها». يتأمّل لبرهة الخطّين: القديم مرتبك قليلاً، لكن كليهما، خطّ الأمس وخطّ اليوم، لهما الشكل ذاته. يبدو له هذا التشابهُ بغيضاً، يُزعجه، يصدمه. كيف يمكن أن يكون

لشخصين غريبين ومتناقضين الخطّ ذاته؟ ما قوام هذا الجوهر المشترك الذي يُحوّلهما هو والآخر التافه إلى شخص واحد وحيد؟

24

لا الشابُ البكر ولا طالبة الثانوية كانا يملكان شقّة كي يلتقيا على انفراد: الجماع الذي كانت قد وعدته به اضطرّ لتأجيله إلى الصيف، الذي ما زال بعيداً. خلال ذلك كانا يقضيان حياتهما ممسكين كلّ بيد الآخر يتنزّهان على الأرصفة أو في دروب الغابة (كان عشّاق تلك المرحلة مشّائين لا يتعبون)، محكومين بأحاديث مكرَّرة وملامسات لا تقود إلى مكان. في تلك الصحراء التي لا نشوة فيها، أعلن لها ذات يومٍ أن انفصالهما حتميّ لأنّه سرعان ما سيرحل إلى براغ.

يُفَاجَأ جوزيف بما يقوله: يرحل إلى براغ؟ هذا المشروع ببساطة مستحيل، فالأسرة لم تبغِ قط مغادرة المدينة. وفجأة تنبثق من النسيان الذكرى الحاضرةُ والحيّة بشكل مزعج، إنّه في دربٍ بالغابة، واقف أمامِ الفتاة، يحدِّثها عن براغ! يُحدِّثها عن انتقاله ويكذب! يتذكّر تماماً ضمير الكاذب عنده، يرى نفسه يتكلّم ويكذب، يكذب كي يُبكيها!

يقرأ: «بين إجهاشاتها قبّلتني. كنتُ يقظاً إلى أقصى حدٍّ لكلّ مظهر من مظاهر ألمها ويؤسفني أنّني ما عدتُ أتذكّرُ العدد الدقيقَ لإجهاشاتها».

هل هذا ممكن؟ «كنتُ يقظاً إلى أقصى حدٍّ لكلّ مظهر من مظاهر ألمها»، إذن عدّ حتى إجهاشاتها! يا له من جلاّد ـ حاسب. تلك كانت طريقته بالشعور، بالعيش، بالتمتع، بتحقيق الحبّ. كان يشدّها بين ذراعيها، هي تَجهِشُ وهو يبدأ بالعدِّ!

يتابع القراءة: «بعدها هدأت وقالت لي: « الآن أفهم أولئك الشعراء الذين يبقون مخلصين حتى الموت». ثم رفعت رأسها نحوي وكانت شفتاها ترتعشان». في مذكراته اليومية يضع خطاً تحت ترتعشان.

لا يتذكّر جوابه ولا الشفتين اللتين كانتا ترتعشان. الذكرى الوحيدة الحيّة حتى الآن هي اللحظة التي حكى لها فيها أكاذيبَ عن انتقاله إلى براغ. إنّه الشيء الوحيد الذي بقي في ذاكرته. يجهد نفسه كي يستحضر بصفاء أكبر ملامح تلك الفتاة الغريبة، التي كانت تلجأ إلى الشعراء «الذين يبقون مُخلصين حتى الموت» بدل المُغنين ولاعبي التنس ! يتذوّق الخلل الزمني لهذه الجملة المكتوبة تفصيلياً ويشعر بودٍّ متنام نحو تلك الفتاة، الحزينة بعذوبة. فقط يعتب عليها عشقها لتافه كُريه مصرّ على تعذيبها.

آه، من هذا التافه! يراه بينما يمعن النظر في شفتي الفتاة، الشفتين اللتين كانتا ترتعشان جامحتين رغماً عنها؛ جامحتان؟ لابدّ أنّه أُثير كما لو كانت تحضرُهُ رعشة (رعشة أنثوية لم يكن عنده أدنى فكرة عنها). ربّما انتصب معه! بالتأكيد!

يكفي! يُقلّب جوزيف صفحاتٍ ويعرف أنّ الفتاة تستعدّ للذهاب إلى الجبل العالي مع صفّها للتزلج مدّة أسبوع. التافِه احتجَّ، هدَّدها بقطع العلاقة معها؛ وهي وضّحت له أنّ هذا يُشكِّل جزءاً من النشاطات المدرسية. صمّ أذنيه وغضب (نشوة أخرى، نشوة الغضب!) «إذا ذهبتِ، انتهى كلُّ ما بيننا. أقسِم لك، إنّها النهاية!».

وبماذا أجابته هي؟ هل ارتعشت شفتاها حين انفجرَ في نوبته العصبية الهستيرية؟ دون شك لا، لأنّه لو حدث ذلك لذكر تلك الحركة الجموحة من شفتيها، تلك النشوة البِكرية. لكن يبدو أنّ التافِه قد قدّر قوّتها، لأنّ طالبة الثانوية لم تظهر بعد ذلك في أيّة ملاحظة. يستمر وصف المواعيد التافهة مع فتاة أخرى (يتجاوز جوزيف

بعض الأسطر) وتنتهي اليوميات بنهاية الفصل الدراسي السابع (طلاب الثانوية التشيكيون عندهم ثمانية فصول)، تماماً في اللحظة التي كشفت له فيها امرأة أكبر منه سنّاً (هذه يتذكّرها جيّداً) عن الحبّ الجسدي ووجّهت حياته باتجاهٍ آخر؛ لم يسجّل شيئاً عن هذا، لم تعش يومياته ما بعد مرحلة بكارة مؤلِّفها. كان فصلاً قصيراً جدّاً من حياته قد انتهى بلا استمرارية ولا نتائج وبقي مهملاً في الزاوية المظلمة للأشياء المنسية.

يبدأ جوزيف بتمزيق صفحات يومياته إرباً إرباً. لا شكّ أنّها حركة مبالغ بها وغير مجدية؛ لكنّه يشعر بالحاجة لأنّ يطلق العنان لكراهيته؛ يشعر بالحاجة لأن يتخلّص من ذلك التافه، كيلا يخلطوا ذات يومٍ (حتى ولو كان في حلم سيّئٍ فقط) بينهما، فلا يزدروه بدلاً عنه، ولا يعتبرونه مسؤولاً عن كلماته وأفعاله!

25

في هذه اللحظة رنّ جرس الهاتفُ. تذكّر المرأةَ التي التقى بها في المطار فرفع السماعة:

ـ حضرتُكَ لن تعرفني ـ سمع من الجانب الآخر.

ـ نعم، نعم أعرفك. لكن لماذا تُكلّمينني بحضرتك؟

ـ إذا أردتَ خاطبتُكَ بأنت، لكنّك لا تعرف مع من تتكلّم!

لا لم يكن الأمر يتعلّق بامرأة المطار. كان صوتاً من تلك الأصوات المقيتة، ذات الجرِس الأنفيّ بشكلٍ كريه. وجدَ نفسه في حرج، فقدّمت نفسها: كانت ابنة زوجته الأولى، التي طلّقها بعد أشهر قليلة من الحياة المشتركة، منذ ثلاثين عاماً تقريباً.

ـ نعم، بالفعل لم يكن باستطاعتي أن أعرف مع من أتكلّم ـ قال بضحكة مفتعلة.

منذ الطلاق لم يرهما، لا الزوجة ولا ابنتها، التي ما زال يراها في ذاكرته طفلةً صغيرة.

ـ أنا محتاجة للكلام مع حضرتك. أنا محتاجة للكلام معك ـ صحَّحت.

أَسِفَ لأنّه كلّمها بأنتِ، هذه الألفة أزعجته، ولكن لم يعد هناك ما يفعله.

ـ وكيف عرفتِ أنّني هنا؟ لم أقل ذلك لأحد.

ـ أنا عرفتُ.

ـ ممّن؟

ـ من زوجة أخيك.

ـ لم أكن أعلم أنّك تعرفينها.

ـ أمّي تعرفها.

أدرك فجأة التحالف الذي نشأ تلقائيّاً بين المرأتين.

ـ يعني أنّك تهتفين إليَّ بدلاً عن أمّك.

الصوت الممل صار ملحّاً:

ـ يجب أن أتكلّم معك. يجب أن أتكلّم معك.

ـ أمّك أم أنتِ؟

ـ أنا.

ـ قولي لي أوّلاً ما الأمر.

ـ هل تريد أن تراني؟ نعم أم لا؟

ـ أرجوكِ أن تقولي لي ما الأمر.

صار الصوت الممل عدوانياً:

ـ إذا كنت لا تريدُ أن تراني، قله بوضوح وخلّصني.

أرعبَهُ هذا الإصرار، لكنّه لم يجد الشجاعة في نفسه كي يتملّص منها. لا شكّ أن الحفاظ على دافع الموعد المطلوب سرّاً خبثٌ فعّال من ابنة الزوجة: فبدأ يقلق.

- أنا هنا لعدّة أيام فقط ومستعجل. وإن كان باستطاعتي تفريغ نصف ساعة... - ودلّها على مقهى في براغ ليوم رحيله.

- لن تأتي.

- سآتي.

حين علّق الهاتف شعر بالغثيان. ماذا تريدان منه؟ نصيحة؟ من يحتاج لنصيحة لا يصبح عدوانياً. كانتا تريدان إزعاجه. إثباتَ أنّهما موجودتان، وجَعْله يضيع الوقتَ. لكن إذا كان الأمرُ كذلك فلماذا قَبِل التواعد معها؟ هل كان فضولاً؟ يا رجل! لقد أذعن خوفاً. خضع لفعل انعكاسي قديم: كي يستطيع الدفاع عن نفسه، دائما كان يريد أن يستعلم مسبقاً، أيّاً كان الأمر. لكن الدفاع عن النفس؟ اليوم؟ ممّن؟ طبعاً ليس هناك أيّ خطر عليه. ليس أكثر من أنَّ صوت ابنة زوجته قد لفّه بسحابة من الذكريات القديمة: مكائد، تدخّلات والديها، إجهاض، بكاء، افتراءات، ابتزاز، عدوانية عاطفية، مشاهد حنق، رسائل مجهولة المرسل: تآمر البوّابين.

للحياةِ التي نخلّفُها وراءنا عادةُ الخروج السيّئة من الظلمات، تقديم بعض الشكايات، وفرض الأحكام علينا. بعيداً عن بوهيميا تعلّم جوزيف ألا يأخذ الماضي بحسبانه. لكنّ الماضي كان هناك، يترصَّدُه، يراقبه. جهد جوزيف منزعجاً أن يفكِّر بشيءٍ آخر. لكن بأيّ شيء آخر يمكن لرجل ذهب ليرى بلده أن يُفكِّر ما لم يكن بماضيه؟ ماذا سيفعل خلال اليومين المتبقيين له؟ هل يزور المدينة التي كانت فيها عيادته؟ ينتصب أمام البيت الذي عاش فيه مفعماً بالرقّة؟ هل بين معارفه القدماء من يريد بصدقٍ أن يعود ليراه؟ برز

صوت «ن» في أزمنة أخرى حين كان مجانين الثورة يتّهمون جوزيف من يدري بماذا (في تلك الأزمنة الجميع كانوا متّهمين من يدري بماذا). «ن»، الشيوعي صاحب النفوذ في الجامعة دافع عنه دون ان يأخذ بالحسبان آراءه ولا آراء أسرته الخاصّة. وهكذا أصبحا صديقين، وإذا كان هناك ما يأخذه جوزيف على نفسه فهو أنّه نسيه عملياً طوال مدّة هجرته.

«المفوّض الأحمر! الجميع كانوا يرتعدون أمامه»، هذا ماقالته زوجة أخيه كما لو أنّها تُلمّح إلى أنّ جوزيف قد تحالف انتهازيّاً مع رجلٍ من رجال النظام. مسكينة البلدان المهتزّة بأيّامٍ تاريخية عظيمة! ما أن تنتهي المعركة حتى يُسارع الجميع إلى إرسال بعثات عقاب بحثاً عن مذنبين. لكن من هم المذنبون؟ هل هم الشيوعيون الذين انتصروا في العام 1948 أم خصومهم العاجزون الذين خسروا؟ الجميع كانوا يلاحقون المذنبين والجميع كانوا مُلاحَقين. حين دخل أخو جوزيف في الحزب كي يستطيع مواصلة دراسته أدانه أصدقاؤه بأنّه وصوليّ. وهذا ما جعله يكره الشيوعية أكثر، ويجعلها مسؤولة عن جبنه، بينما زوجة أخيه كانت تُركّز كلّ كراهيتها على «ن»، الذي ولأنّه ماركسيّ مقتنع قبل الثورة شارك إراديّاً (وبالتالي دون عفو ممكن) في ولادة ما كانت تعتبره أعظم الشرور.

عاد جرس الهاتف ليرنّ. كان واثقاً هذه المرّة من معرفتها.

ـ أخيراً!

ـ كم يُسعدني أن تقول «أخيراً»! هل كنتَ تنتظر مكالمتي؟

ـ بنفاد صبر.

ـ هل تقول هذا بجدّية؟

ـ كان مزاجي مزاج ألف شيطان. سماعُ صوتك غيّر كلَّ شيء!

ـ صه، أنت تُسعدني بذلك. كان بودّي لو أنّك هنا، معي، في المكان الذي أنا فيه الآن.

ـ آسف لأنّ هذا غير ممكن.

ـ تأسف؟ جدّياً؟

ـ جدّيّاً.

ـ هل سأراك قبل أن تذهب؟

ـ بلى، سنلتقي.

ـ أكيد؟

ـ أكيد. هل نتناول طعام الغداء معاً بعد غدٍ؟

ـ بكلّ سرور.

أعطاها عنوان فندقه في براغ.

حين علّق السماعة، وقع بصره على اليوميات الممزّقة، التي تحوّلت إلى كومة من الورق على الطاولة، فجمعها ورماها مسروراً في سلّة المهملات.

26

كان غوستاف قد افتتح، قبل ثلاثة أعوام من العام 1989 ، مكتباً لشركته في براغ، لكنّه لم يكن يقضي هناك إلا فترات قصيرة من العام. كفاه ذلك كي يُحبّ المدينة ويرى فيها مكاناً مثالياً للعيش، ليس حبّاً بإِرِنا فقط بل أيضاً (ويمكن أن يكون خاصّة) لأنّه كان يشعر هناك بأنه بعيد عن السويد وأسرته وحياته الماضية أكثر مما في باريس. لم يتردّد حين اختفت الشيوعية بشكل غير متوقّع من أوروبا في أن يفرضَ براغ على شركته كنقطة استراتيجيّة

لكسبِ الأسواق الجديدة. جعلهم يشترون بناء باروكياً جميلاً للمكاتب وعمل من عليّته شقّةً له. في الوقت نفسه وضعت أمُّ إرنا، التي كانت تعيش وحيدةً في بيت بضواحي المدينة، الطابقَ الأوّل كاملاً تحت تصرّف غوستاف، وبذلك كان باستطاعته أن يبدّل مسكنه حسب ما يشتهي.

استيقظت براغ، النائمة والمهملة خلال المرحلة الشيوعية، أمام عينيه، امتلأت بالسياح، وازدانت بالبيوت الباروكية المرمّمة والمطلية من جديد. «براغ مدينتي»، كان يهتف. لقد عشق هذه المدينة، ليس كوطنيّ يبحث في كلّ زاوية عن جذوره، عن ذكرياته، عن آثار أحبّته، بل كرحّالةٍ يترك نفسه يفاجَأ ويُدهَش، مثل طفل يتنزّه في مدينة ملاهي ولا يريد أن يذهب. تعلّم تاريخَ براغ وكان يُطلق أمام كلّ من يريد أن يَسمعه خطاباتٍ طويلةً عن شوارعها، قصورها، كنائسها، ويُحاضِر إلى ما لا نهاية حول أبطالها: الإمبراطور رودولف (حامي الرسامين والخيميائيين) موزارت (الذي يبدو أنّه كانت له عشيقة هناك) وفرانز كافكا (الذي تحوّل، بعد أن شعر بنفسه بائساً طوال حياته في تلك المدينة، بفضل وكالات السفر إلى قديس حامٍ لها).

نسيت براغ بسرعة غير متوقّعة اللغةَ الروسيةَ التي اضطُر سكّانها وعلى امتداد أربعين سنة أن يتعلموها منذ المدرسة الابتدائية، ولكي يُصفّق لها على مسرح العالم تبدّت للمارّةِ بنفاد صبر مزيّنةً بالكتابات الإنكليزية: *skateboarding, snowboarding, streetwear, publishing house, National Gallery, cars for hire, pomonamarkets* وأخرى من هذا القبيل. في مكاتب شركته، الشركاء التجاريون، الزبائن الأثرياء جميعهم كانوا يتوجّهون إليه بالإنكليزية، بحيث تحوّلت التشيكية إلى همس بلا هويّة، زخرفة رنانة لا يبرز فيها على شكلِ كلماتٍ

إنسانية إلاّ الأصوات الأنكلوسكسونية. وهكذا حين هبطت إرنا ذات يومٍ في براغ لم يستقبلها بكلمة «*Salut!*» الفرنسية المعتادة بل بـ «*Hello!*».

فجأةً انقلبَ كلّ شيء. لنتصوّر حياة إرنا بعد موت مارتين: لم يكن عندها من تتكلّم معه التشيكية، لأنّ ابنتيها كانتا ترفضان أن تُضيّعا الوقت على لغة من الواضح تماماً أنّها غير ذات فائدة؛ فالفرنسية انتقلت لتصبح لغتهما اليومية، لغتهما الوحيدة، ليس هناك ما هو أكثر طبيعية من ذلك بالنسبة إليها. هذا الاختيار اللغوي وزّع الأدوار: بما أنّ غوستاف كان يتكلّم الفرنسية بشكلٍ سيّئ، فقد كانت الكلمة لها، تترك قيادَها لفصاحتها: يا إلهي، أخيراً وبعد كلّ هذا الزمن صار باستطاعتي أن أتكلّم، أتكلّم ويُصغى إليّ. تفوّقها في الكلام وازن علاقتها بالقوة: هي كانت تابعة له تماماً، لكنها في حواراتهما تُسيطر عليه وتجرّه إلى عالمها الخاص.

براغ الآن تعيد طرح كلّ شيء بلغة الزوجين؛ هو يتكلّم الإنكليزية وهي تصرّ على فرنسيّتها التي تشعر بأنّها ملتصقة بها في كلّ مرّة أكثر، لكنّها حين لم تلقَ أي دعمٍ خارجي (ما عادت الفرنسية تُمارس سحرها في هذه المدينة الفرانكوفونية سابقاً) انتهت بالإذعان؛ تبدّلت علاقتهما: في باريس أصغى غوستاف باهتمامٍ إلى إرنا المعجبة بكلمتها الخاصّة، وفي براغ صار المتكلّمَ هو، ثرثاراً لا يكفّ عن الكلام. وبما أنّ معرفة إرنا بالإنكليزيّة سيّئة فهي لم تكن تفهم مما كان يقوله إلا نصفه، وبما أنّه لم يكن لديها رغبة بأن تُجهد نفسها، فأنّها لم تكن تستمع إليه تقريباً، وصارت تُكلّمه في كلّ مرّةٍ أقل. عودتها الكبرى تبدّت غريبة كفاية: كانت تأخذها في الشارع، وهي محاطة بالتشيكيين، نفحةُ ألفةٍ من الماضي فتجعلها سعيدة لثانية؛ لكنّها تعودُ بعد ذلك لتصبح في البيت أجنبية لا تفتح فمها.

الحديث المتواصل يهزهز الزوجين، ودفقه الحزين يسحب وشاحاً كتيماً فوق رغبات الجسد الغاربة. حين ينقطع الحديث ينبثق غياب الحب الجسدي مثل الشبح. أمام صمت إرِنا فَقَدَ غوستاف أمانَهُ. ومنذ ذلك الوقت صار يُفضِّل أن يراها بحضور الأسرة، أمّها، أخيها غير الشقيق وزوجته؛ يتناول العشاء معهم جميعاً في البيت أو في مطعم، باحثاً في رفقتهم عن غطاء، ملاذٍ، سلام. لم ينقصهم قط موضوعات لأنّهم عادة ما كانوا يتطرّقون للقليل منها: مفرداته محدودة ولكي يفهم بعضهم على بعض كان على الجميع أن يتكلّم ببطء ويكرّر. عاد غوستاف ليعثر من جديد على صفوه؛ هذا التكلم ببطء كان يُناسبه، فهو مريح، لطيف بل ومفرح (كم مرّة ضحكوا من كلماتٍ إنكليزية شُوِّهت بشكلٍ هزليّ!).

منذ زمن فرغت عينا إرِنا من الرغبة، لكنّهما بقوّة العادة كانتا تبقيان مفتوحتين تماماً حين تنظران إلى غوستاف، الذي كان يضعه هذا في موقف حرج؛ ولكي يخلط الأمور ويغطي على انكماشه الجنسي، كان يسعد برواية النكات اللاذعة بلطف مع تلميحات ملتبسَة قليلاً، يقولها بصوت عالٍ جدّاً وبين الضحكات. كانت الأمّ خير حليف له، مستعدة دائماً لمساندته، بإنكليزيتها الصبيانية التي تلفظها بشكل مقلَّد فتجعل من نفسها محطّ استنكار. بالاستماع إليهما كان يتولّد عند إرِنا انطباع بأن الجنس قد عبر ليصبح وللأبد مهزلة صبيانية.

27

منذ أن التقت بجوزيف في باريس ما عادت تُفكّر إلا به. تستعيد باستمرار ذكرى مغامرتها القصيرة معه في براغ. في البار الذي كانت تذهب إليه مع الأصدقاء، برهن عن أنّه حاضِر النكتة،

جذّاب، مرتهِن بها طوال البرهة التي يقضيانها معاً. حين خرجوا إلى الشارع تدبّر أمره كي يبقيا وحيدين. دسَّ في يدها صحن سجائر سرقه لها من البار. بعدها دعاها ذلك الرجل الذي عرفته لعدّة ساعات إلى بيته. وبما أنّها كانت مخطوبة لمارتين لم تجرؤ ورفضت. لكنّها ندمت كثيراً وبخشونة وعمق فلم تستطِع نسيانه قط.

حتى أنّها وقبل أن تُهاجِر، حين اضطُرَّت لأن تختار بين ماستحمله معها وما ستتركه، وضعت صحن سجائر البار الصغير في حقيبتها؛ وفي الغربة كثيراً ما حملته في محفظتها، سرّاً، وكأنّه طلّسم.

تتذكّر أنّه قال لها في قاعة الانتظار في المطار بنبرة قوية وغريبة: «أنا رجل حرّ تماماً». عندئذٍ تولّد لديها انطباعٌ بأن قصّةَ حبّهما، التي بدأت قبل عشرين عاماً، أُجّلت فقط حتى اللحظة التي يكونان فيها حرّين.

تتذكّر منه جملةً أخرى: «أنا في باريس عبوراً وبمحض المصادفة» والمصادفة هي طريقة أخرى لقول القدر؛ فقد كتِب له أن يعبر بباريس كي تستمرّ قصّتهما بدءاً من اللحظة التي قُطِعت فيها.

تُحاول الاتصال به بالهاتف النقال في يدها، من أيّ مكان هي فيه، من المقاهي، من شقّة صديقتها، من الشارع. رقم الفندق صحيح، لكنّه لا يتواجد أبداً في غرفته. تفكّر به طوال النهار وتفكّرُ بغوستاف أيضاً كما يتجاذب الأضدادُ. حين تمرّ أمام حانوت هدايا ترى في الواجهة قميصاً رُسم عليه رأس تنين عنيد وكتابة: كافكا ولد في براغ. يسحرها هذا القميص الأبله بكبرياء فتشتريه.

عند الليل تعودُ إلى البيت بنيّة أن تهتف له بهدوء، لأنّ غوستاف عادةً ما يعودُ أيّام الجمعة متأخِّراً؛ وعكس كلّ ما هو متوقّع تجده مع أمّها في الدور الأرضي، وفي الغرفة تدوّي

ثرثرتهما بالتشيكية - الإنكليزية يُضاف إليه صوت التلفزيون، الذي لا أحد ينظر إليه. تُسلِّم غوستاف الصرّة: «إنّها لك».

تتركهما يُعجبان بالهدية وتصعد لتحبس نفسها في الحمّام. تُخرج الهاتِف من حقيبة يدها وهي جالسة على حافّة جرن المرحاض. تسمع «أخيراً» وتقول له مفعمةً بالسعادة «كان بودّي لو أنّك هنا، معي، في المكان الذي أنا فيه الآن»؛ فقط حين تقول هذه الكلمات تنتبه إلى المكان الذي هي فيه فتخجل؛ تُفاجئها قلّةُ لباقةِ ما انتهت من قوله، لكنّها أيضاً تُثيرها. في تلك اللحظة يتولّد لديها انطباع لأوّل مرّة خلال كلّ هذه السنوات بأنّها تخدع رجلها السويدي فتشعر بمتعة النصر.

حين تهبط إلى القاعة، تجد أنّ غوستاف ارتدى القميص، فتضحك ضحكةً مجلجلةً. تعرف هذا المشهد عن ظهر قلب: تقليد الإغواء الساخر، المبالغة بالحركات والطرافة: عَرض شيخوخي للإيروسيّة الغارِبة. تُعلن الأم التي أخذت غوستاف من يده لإرِنا: «سمحتُ لنفسي دون إذن منك أن ألبِسَ عزيزك غوستاف القميص. أليس صحيحاً أنّه رائع؟» وتلتفت معه نحو مرآةٍ كبيرة معلّقةٍ إلى جدار في القاعة. تنظر إلى انعكاسهما فيها وترفع يدَ غوستاف كما لو أنّها فازت بمنافسة في الألعاب الأولمبية، فيُبرز هو صدره متابعاً لعبها أمام المرآة، ويقول بصوتٍ رنّان: «كافكا وُلد في براغ!».

28

انفصلت عن حبّها الأوّل دون معاناة كبيرة. مع الثاني كان الأمر أسوأ. حين سمعته يقول: «إذا ذهبت انتهى كلّ ما بيننا، أُقسِم لك إنّها النهاية!»، لم تستطع أن تنطق بكلمةٍ واحدة. كانت تُحبّه

بينما هو قذف في وجهها ما بدا لها، قبلَ دقائقَ قليلة، شيئاً لا يمكن تصوّره: القطيعة.

«انتهى كلُّ شيءٍ بيننا.» النهاية. إذا كان هو يعدها بالنهاية فبماذا يجب أن تعِدَه هي؟ إذا كانت هذه الجملة تتضمّن تهديداً فجملتها ستتضمّن آخرَ: «حسناً»، تقول ببطء وتدرّج، «ستكون النهاية، أنا أيضاً أعِدُك بذلك وأعدُك أيضاً بأنّك ستتذكّرُ هذا». ثمّ أدارت له ظهرها وتركته مصلوباً في الشارع.

شعرت بنفسها مجروحة، لكن هل غضبت منه؟ يمكن ألاّ يكون حتى هذا. طبعاً كان عليه أن يُظهر تفهّماً أكبر، لأنّ من الواضح أنّها كانت رحلة إجبارية لا تستطيع تفاديها. كان عليها أن تتظاهر بمرضٍ ما، لكنّ ما كان لها أن تنجح نظراً لنزاهتها الخرقاء معه. لاشكّ أنّه كان يُبالِغ، لكنّها تعرف أنّه يفعل ذلك لأنّه يحبُّها. تعرف سبب غيرته: يتصوّرها في الجبل مع فتيان آخرين وكان هذا يؤلمه.

وبما أنّها لم تكن قادرة أن تغضب غضباً تامّاً، فقد انتظرته أمام المدرسة لتوضّح له بأفضل ما عندها من إرادة أنّها لا تستطيع أن تُطيعه، وأنّه لم يكن عنده أيّ مبرّر كي يشعر بالغيرة، كانت واثقة من أنّه سينتهي بتفهّم الحالة. في باب الخروج رآها، فتوقّفَ كي يجد أحد معارفه فيرافقه. دون أن تستطيع الكلام معه هذه المرّة تبعته عبر الشارع، وحين ودّع رفيقه أسرعت نحوه. مسكينة! لا بدّ أنّها شكّت بأنّ كلَّ شيءٍ قد ضاع فعلاً وأن صديقها أسير هيجان لايستطيع التخلّص منه. ما أن بدأت تتكلّم حتى قاطعها: «هل بدّلتِ رأيك؟ هل ستتخلّين عن الذهاب؟». حين عادت لتُوضّح له للمرّة التي لا تدري كم، كان هو مَنْ أدار لها ظهره هذه المرّة وتركها في الشارع.

غرقت في حزنٍ عميق، لكنّها لم تشعر بعدُ بالحنق ضدّه. كانت

تعرف أن الحبّ يعني تقديم كلّ شيء، ليس فقط الحبّ الجسدي، الذي كانت قد وعدته به، بل الجرأة، جرأة الأشياء الكبيرة كما الصغيرة، بما فيها الجرأة التافهة على عصيان واجب مدرسي مُضحِك. وتبيّنت مفعمة بالخجل رغم كلّ حبّها أنّها لم تكن قادرة على العثور على هذا الجرأة. كم هو مضحك! مُضحك إلى حدّ أنّها انفجرت بالبكاء: كانت على استعداد لتعطيه كلّ شيء، طبعاً بما في ذلك عذريّتها، وأيضاً صحّتها أو أي تضحية يمكن تصوّرها إذا أراد، ومع ذلك لم تكن قادرة على عصيان أوامر مدير معهد بائس. هل عليها أن تترك نفسها تُهزم بمثل هذه الصغائر؟ كان عدمُ الرضى الذي تشعرُ به نحو نفسها غيرَ محتمل وأرادت أن تخرج من الحالة بأيّ ثمن، أرادت أن تُدرك عظمة تمحو صِغَرَها؛ عظمة ينتهي أمامها بالانحناء؛ أرادت أن تموت.

29

الموتُ. إن قرار الموت أسهل على المراهق منه على الراشد. ماذا؟ أَلاَ يحرمُ الموتُ المراهِقَ من حصّة كبيرة من المستقبل؟ نعم، هذا صحيح. لكنَّ المستقبل بالنسبة للمراهق شيء قصيٌّ، مجرّد، غير واقعي، لم تتمكّن من الاقتناع به بعد.

كانت تتأمّل حبَّها المُنتهي مندهشة، أجمل مرحلة في حياتها تبتعدُ ببطء وإلى الأبد، لن يكون عندها بعد الآن إلا الماضي، وأمامه تريد أن تلفت الانتباه إلى نفسها وهو يريد أن يتكلّم ويرسل إشاراتٍ. لا يهمّها المستقبل، كانت ترغب بالأبديّة، ترغب بالقضاء على المستقبل.

لكن كيف تموت بين هذا العدد الهائل من التلاميذ، في فندق صغير في الجبل، وهي تحت نظر الجميع قي كلٍّ لحظة؟ وَجَدَتها:

ستخرج من الفندق وتذهب بعيداً، بعيداً جدّاً في الطبيعة، وفي مكان معزول ستستلقي على الثلج وتنام. سيأتيها الموتُ وهي نائمة، الموتُ بالتجمّد موتٌ عذب، دون ألم. ليس عليها إلا أن تمرّ بلحظة برد. بل وتستطيع أن تختصرها بمساعدة بعض المنوّمات. فأخذت خمسة أقراصٍ من عبوة وجدتها في بيتها فقط، كيلا تنتبه أمّها.

لقد خطّطت لهذه الميتةِ بكل إحساسها العملي. ستخرج في المساء وتموت في الليل، تلك كانت الفكرة الأولى ولكنّها رفضتها: سرعان ما سينتبهون في المطعم إلى غيابها ساعةَ العشاء وخاصّة في غرفة النوم ليلاً. فاختارت بحنكة ساعةَ ما بعد الغداء، حيث ينامُ الجميعُ القيلولةَ قبل أن يعودوا إلى التزلّج: إنها استراحة لن يستطيع أحد أن ينتبه خلالها إلى غيابها.

ألم تكن ترى البون الشاسع الملفت للنظر بين تفاهة السبب وهول الفعل؟ ألم تكن تعلم أنّ ما تُخطِّط له مُفرِط؟ نعم، لكنّ ما كان يشدّها هو بالضبط الإفراط. لم تكن تريد أن تكون عقلانية. لم تكن تريد أن تكون مُعتدلة. لم تكن تريد أن تزِن الأمور، ولم تكن تريد أن تُفكّر بعقل. كانت معجبة بعاطفتها، مع علمها بأن العاطفة تعريفاً هي إفراطٌ. وكسكرانة لم تكن تريد أن تخرج من السكْر.

ثم يأتي اليوم المُختارُ، فتخرج من الفندق. بجانب باب الدخول هناك مقياس حرارة جوّي: عشرة تحت الصفر. تشرع بالسير فتتبينّ أن الضيق أقوى من السكْر، عبثاً تبحث عن ذلك السحر، عبثاً تُعرّج على الأفكار التي رافقت حلم موتها، ومع ذلك تمضي قدماً (رفاقها في تلك اللحظة ينامون القيلولة الإجبارية) كما لو أنّها تقومُ بمهمّة أوكِلت إليها، تقومُ بدور خُوّلت به. روحها فارغة، خاوية من أيّ شعور، تماماً مثل ممثّل يلقي نصّاً ولا يُفكّر بما يقول.

تصعد في دربٍ طويل يتألقُّ بالثلج وتصلُ إحدى القمم. السماءُ في الأعلى زرقاء والغيومُ تحتها مشمسة، ذهبية، احتفالية مثل إكليل كبير فوق دائرة الجبال المُحيطة. منظرٌ جميل، مُذهل، فيستحوذ عليها شعور، قصير، قصير جدّاً بالسعادة، يقودُها إلى نسيان الهدف من الرحلة. شعورٌ قصير، قصير جدّاً، أقصر من اللازم. تبتلع أقراصَ المنوِّم الواحد بعد الآخر وباتباع مخطّطِها تهبط من القمّة باتجاه غابةٍ. تسير في دربٍ وبعد عشر دقائق تشعر بالنعاس يقترب فتعرف أنّ النهاية قد حانت. فوق رأسها كانت الشمس تلمع ساطِعة، ساطِعة. فتشعر بالذعر، مثل ممثّلة قبل رفع الستار فجأة. وتجدُ نفسها محاصرة في مسرح مضاء أغلِقت جميع مخارجه.

تجلس تحت شجرةِ تنّوبٍ، تفتحُ محفظتها وتُخرج مرآة. إنّها مرآة صغيرة دائرية تسندها أمام وجهها وتنظر إلى نفسها فيها. إنّها جميلة، جميلة جدّاً، ولا تريد أن تُغادِر هذا الجمال، لا تريد أن تفقده، تريد أن تأخذه معها، آه، هاهي متعبة، متعبة جدّاً، لكن وعلى الرغم من تعبها تنتشي أمام جمالها، لأنّه أكثر ما تملك في هذا العالم قيمة.

تنظر إلى نفسها في المرآة، فترى كيف ترتعد شفتاها. إنّها حركة لا إرادية، عرّة عصبية. مرات كثيرة لاحظت ردّة الفعل هذه عندها وشعرت بها في وجهها، لكنّها المرّة الأولى التي تراها. حين تراها تشعر بتأثّر مضاعف، تأثّر أمام جمالها وتأثّر أمام شفتيها المرتعشتين، تأثّر من جمالها وتأثر من التأثر الذي يمسّ هذا الجمال ويُشوِّهه، ثم تأثر من جمالها الذي يبكيه جسدُها. تشعر بشفقة هائلة على جمالها، الذي سرعان ما سيختفي، وتشعر بالشفقة على عالمٍ لن يبقى جميلاً أيضاً، وما عاد الآن موجوداً، ما عاد الآن ممكناً، لأنّ الحلم هناك، يحملها، يحملها بين ذراعيه

عالياً، عالياً جدّاً نحو ذلك السطوع الذي يعمي، نحو السماء الزرقاء، الزرقاء بشكلٍ ساطع، نحو قبّة سماءٍ بلا غيوم، قبّة سماء ملتهبة.

30

حين قال له أخوه: «تزوجّت هناك حسب علمي» أجاب هو «نعم» دون زيادة. ربّما كان يكفي أن يستخدِمَ أخوه صيغةً أخرى، أن يسأل مثلاً: «هل أنت متزوّج؟» بدلَ «تزوَّجت» كي يجيب جوزيف: «لا، أنا أرمل»، فهو لم يكن بنيّته أن يخدع أخاه، لكنّ الطريقة التي صاغ بها جملته جعلته يتخطّى موت زوجته دون أن يكذب.

خلال الحديث الذي تلا ذلك تفادى أخوه وزوجته أيّ إشارة إلى الموضوع. كانا بالطبع يتحاشيان الشعور بعدم الراحة: لأسبابٍ أمنية (ليتجنّبا أن يُذْكَرا عند الشرطة)، أنكرا أيّ اتصال بالقريب المهاجر، حتى أنّهما لم ينتبها كيف تحوّلت هذه الحكمة المفروضةُ إلى عدم اهتمام صادِق: فهما لا يعرفان شيئاً عن زوجته، عن عمرها، عن اسمها ولا عن عملها، وأرادا بهذا الصمت أن يتستّرا على جهلهما الذي يكشف عن بؤس تامٍّ في علاقتهما به.

لكنّ هذا لم يُهن جوزيف، فجهلهما يلائمه. إذ أنه منذ اللحظة التي واراها فيها الترابَ بدأ يشعر بنفسه عنيفاً حين يجد أنّه مُجبَرٌ على إعلام أحدٍ بموتها، كما لو أنّ هذا يخونه في صميم صميمه. وقد أحسّ دائماً أنّه بالسكوت على موتها يحميها.

ولأنّ المرأة الميتة هي دائماً امرأة عزلاء، فإنّها لا تملك سلطة، لا تمارس أيَّ تأثير، وما عاد الآخرون يحترمون رغباتها

ولا أذواقها؛ فالمرأة الميتة لا يمكن أن تريد شيئاً، أو تطمح لأيّ تقدير، أو تردّ على أيّ افتراء. وهو لم يشعر تجاهها قط بمثل ذلك العطف الموجع والمعذّب كما شعر بعد أن ماتت.

31

كان جوناس هالغريمسون شاعراً رومانسيّاً عظيماً، وكذلك مقاتلاً عظيماً في الدفاع عن استقلال إيسلَندا. جميع الأمم الأوروبية ملكت في القرن التاسع عشر شعراءها الرومانسيين والوطنيين: بِتوفي في هنغاريا ميكِويكتس في بولونيا، برِسِرن في سلوفانيا، ماتشا في بوهيميا، تشفتشينكو في أوكرانيا، فيرجلاند في النرويج ، لونّرو في فنلندا وآخرين كثيرين. كانت إيسلَندا آنذاك مستعمرة دانماركية، وهالغريمسون عاش سنواته الأخيرة في العاصمة. جميع الشعراء الرومانسيين العظام كانوا بالإضافة إلى أنّهم وطنيون عظام هم سكيرون عظاماً. سقط هالغريمسون ذاتَ يومٍ من أعلى الدرج وهو سكران تماماً، فكُسِرت ساقه وأصيب بالتّهاب ومات، ثم دفن في مقبرة كوبنهاغن. كان العام الجاري هو 1845. لكن بعد تسعٍ وتسعين عاماً وفي العام 1944 أُعلنت جمهورية إيسلندا. ومنذ تلك اللحظة تسارعت الأحداث. ففي العام 1946 زارت روحُ الشاعر صناعياً إيسلندياً في الحلم وتصارحت معه: «منذ مئة سنةٍ وسنة وعظامي ترقد في الغربة، في أرض العدّو. أما آن الأوان كي تعود إلى إيثاكا الحرّة؟».

سعيداً ومتحمّساً بهذه الرؤيا الليلية أمر الصناعيُّ الوطنيُّ بإخراج رفاة الشاعر من الأرض المُعادِية، ونقلها إلى إيسلَندا مفكّراً بدفنها في الوادي الجميل الذي وُلِد فيه الشاعر. لكنّ أحداً لم يستطع أن يوقف سير الأحداث المجنون: ففي مشهد ثينغفلِير

الجميل بشكلٍ يفوق الوصفَ (وهو المكان المقدّس الذي كان يجتمع فيه منذ ألف عامٍ البرلمان الإيسلندي تحت السماء) أحدث وزراء الجمهورية الحديثة مقبرةً للشخصيات الوطنية العظيمة؛ فانتزعوا الشاعرَ من الصناعيّ ودفنوه في المدفن الذي لم يكن فيه حتى تلك اللحظة غير قبر شاعر آخر عظيم (الأمم الصغيرة تغصُّ بالشعراء العظام) إينار بِنِديكتسون.

لكنّ سير الأحداث تسارع من جديد وسرعان ما علم جميع الناس بما لم يجرؤ الصناعي الوطنيّ على الاعتراف به: فقد وجدَ نفسه في موقف حرج أمام القبر المفتوح في كوبنهاغن؛ لأنهم كانوا قد دفنوا الشاعر في مقبرة للفقراء، وقبره لم يكن يحمل أيّ اسم بل مجرّد رقم، والصناعي الوطنيّ لم يدرِ أياً من الجماجم المكدّسة والمختلطة أمامه يختار. لم يجرؤ، أمام بيروقراطيي المقبرة المتجهّمين والمضطربين، على التعبير عن شكّه، بحيث أن ما حمله معه إلى إيسلندا لم يكن الشاعر الإيسلندي، بل جزاراً دانماركياً.

في إيسلَندا أرادوا أن يحافظوا على سرّية هذا الخطأ المُحزنِ بشكل هزلي، لكنّ أحداً لم يستطع أن يوقف سير الأحداث فنشر هالدور لاكسِنس الذي لايحفظ سراً الخرافةَ في رواية في العام 1948. ما العمل؟ السكوت. هذا يعني أنّ رفات هالغريمسون ما تزال ترقد على بعد ألفي كيلومتر من إيثاكاهُ، في الأرض المعادية، بينما جسدُ الجزار الدانماركي، الذي كان وطنيّاً أيضاً دون أن يكون شاعراً، منفيٌّ في جزيرةٍ جليدية لم تكن قد أيقظت عنده إلاّ الخوف والاشمئزاز.

على الرغم من الحفاظ على سرّية الحقيقة إلاّ أنّها حضّت على عدم دفن أيّ شخصٍ آخر في مقبرة ثينغفِلِير الجميلة، التي لا تحتوي إلاّ على تابوتين. وهكذا فإن هذا المدفن من بين جميع

مدافن العالم ومتاحف الفخار القبيحة هو الوحيد القادِر على تحريك مشاعرنا.

حكت زوجة جوزيف هذه القصّة له منذ زمن طويل. كانت تبدو لهما طريفة وكانا يفكّران أنه يُستخلَص منها درسٌ أخلاقيّ: لا أحد يهمّه مثقال ذرّة أين سينتهي رفاة ميّتٍ.

ومع ذلك فإن جوزيف غيّر رأيه حين صار موت زوجته جليّاً وحتمياً. فجأة لم تعد تبدو له قصّة الجزار الدانماركي، المنقول بالقوّة إلى إيسلَندا، طريفةً بل مرعبة.

32

منذ زمن كان قد تآلف مع فكرة أن يموت معها. لم يكن ذلك نتيجة تضخّم رومانسيّ، بل نتيجة تأملّ عقلانيّ: فقد قرَّرَ في حال إذا كان مرض زوجته قاتلاً أن يقصّر معاناتها، ولكي لا يُتهم بالقتل قرر أن يموتَ هو أيضاً. لكنّ الصحيح هو أنّها مرضت مرضاً شديداً وعانت ما يفوق الوصَف، فلم يفكّر جوزيف بعدها بالانتحار. ليس خوفاً من فقدان الحياة، بل لأنّ فكرة ترك جسد حبيبته بيد الغرباء صارت غير مُحتملة. من سيحمي الميتة إذا مات؟ كيف يمكن لجثّة أن تحمي جثّة؟

في أزمنة أخرى في بوهيميا شَهِدَ احتضار أمّه، وكان يُحبّها كثيراً، لكن ما أن غادرت الحياة حتى ما عاد يهمّه جسدُها، فجثتها بالنسبة إليه ما عادت هي. ومن جهة أخرى كان هناك طبيبان، أبوه وأخوه، يعتنيان بالمحتَضَرة وهو في ترتيب العائلة لم يكن إلا ثالث أفراد الأسرة. لكن الأمر كان هذه المرّة مختلفاً جدّاً. المرأة التي كان يراها تُحتَضَر تنتمي إليه وحده، كان يشعر بالغيرة على جسدها ويريد أن يسهر على مصيره القادم، بل كان عليه أن يلفتَ

انتباه نفسه بشكل صارم: هي ما تزال حيّةً، مسجاة أمامه، يُكلِّمُها، وهو يعتبرها ميتةً! هي كانت تنظر إليه وعيناها مفتوحتان كما لم يُفتحا من قبل، وهو خلال ذلك ينشغل بالتابوت وبالقبر! فيصفعه الأمر كأنّه خيانة فاضحة، فقدان صبر، رغبة سرّية باستعجال موتِها. لكنّه لم يكن يستطيع فعل أي شيء: كان يعرف أنّ أهلها سيُطالبون بجثمانها بعد موتها لمقبرة الأسرة وكانت الفكرةُ ترعِبه.

وبعدم اكتراثهما بإجراءات الجنازة كانا قد كتبا منذ زمن طويل وصيّة تنطوي على كثير من الإهمال؛ فالتعليمات المتعلّقة بأملاكهما كانت بسيطة جدّاً حتى أنّها لا تذكُر ما يتعلّق منها بالجنازة. هذا الإهمال راح يصيبه بالهوس بينما هي تموت، لكن وبما أنّه كان يريد أن يقنعها بأنّها ستهزم الموت اضطرّ للصمت. كيف سيجعل تلك المرأة التي تعتقد بشفائها تعترف، كيف سيصرّح لها بما يُفكّر به؟ كيف سيكلّمها عن الوصية؟ خاصّة حين كانت تغيب في هذيانها وتختلِطُ أفكارُها.

عائلة زوجته، وهي عائلةٌ ذات نفوذٍ كبيرة، لم تنظر قط بعين الرضى إلى جوزيف، لذلك بدا له أنّ الصراع الذي سينشب على جثمان زوجته سيكون الأقسى والأهم بين كلّ ما خاضه من صراعات. كانت تبدو له فكرةُ أن يبقى جسدها مقبوراً في اختلاط فاسق مع أجسادٍ أخرى، غريبة، لا مبالية، غيرَ محتمَلَة مثلَ فكرة ألّا يعرف أينَ ينتهي به المطافُ حين يموت، وخاصّة أن يكون بعيداً عنها. بدا له السماح بذلك هزيمة هائلة كالأبدية، هزيمة لن تُغفر له أبداً.

حدث ما خافه. لم يستطع تفادي المواجهة. حماته كانت تصرخ في وجهه: «هي ابنتي! هي ابنتي!». فاضطُرّ أن يُعين محامياً، أن يتخلّى عن مالٍ كثير كي يُهدِّئ الأسرة، أن يشتري مكاناً

في المقبرة، وأن يعمل بسرعة أكثر من الآخرين كي يكسب آخر معركة.

الجهد المحموم الذي بذله خلال أسبوع، دون أن تُغمَض له عين، منعه من المعاناة وحدث شيء أكثر غرابة: ذات مرّة وبينما هو على القبر الذي سيصير لهما (قبر لاثنين مثل عربة لاثنين) لمح في ظلمة حزنه شعاعاً، شعاعاً واهناً، مرتعشاً، لا يكادُ يرى من السعادة. سعادة أنّه لم يخيّب حبيبته؛ لأنّه أمّن لها وله مستقبلهما.

33

قبل برهة كانت قد ذابت في الأزرق المُشِع! صارت لا مادّية وتحوّلت إلى ضياء!

لكن فجأة وإذا بالسماء تسودُّ. وهي من جديد على الأرض تعودُ لتُصبح مادّةً ثقيلةً وكئيبة. دون أن تُدرِك تقريباً ما جرى لها لم تستطع أن ترفع نظرها عن الأعلى: فقد كانت السماء سوداء، سوداء، سوداء بشكل لا يرحم.

جزء من جسدها كان يرتعِشُ برداً، والجزء الآخر كان فاقد الحس. أرعبها هذا. نهضت. بعدَ ثوانٍ تذكّرت: فندق في الجبل؛ الزملاء. فبحثت، وهي مشوشة وجسدها متجمّد، عن الطريق. وفي الفندق استدعوا سيّارةَ الإسعاف التي نقلتها إلى المشفى.

خلال الأيّام التالية في سرير المشفى آلمتها أصابعُها وأذناها وأنفُها، التي كانت في البداية فاقدة الحس، ألماً شديداً. هدّأها الأطباء، لكنّ إحدى الممرضات استمتعت وهي تحكي لها كلّ النتائج المتصوَّرة للتجمّد: فهناك من يمكن أن ينتهي بقطع أصابعه. تصوّرت، وقد صارت أسيرةَ الرعبِ، ساطوراً، ساطورَ جرّاح؛

ساطورَ جزار؛ تصوّرت يدَها دون أصابع والأصابعَ مقطوعة أمام بصرها، بجانبها على سرير في غرفة العمليات. في تلك الليلة قدّموا لها لحماً للعشاء، لم تستطع أكله؛ فقد تصوّرت أنّ قطعاً من لحمها في الطبق.

عادت أصابعها إلى الحياة بشكلٍ مؤلم، لكنّ أذنها اليسرى اسودّت. الجرّاح، وكان عجوزاً حزيناً ورؤوفاً، جلس على حافّة السرير ليعلن لها بأنّه سيقطعها لها. صرخت. أذنها اليسرى! أذنها! يا إلهي! وجهها، وجهها الجميل، تنقصه أذن! لا أحد استطاع أن يُهدِّئها.

آهِ، كلُّ شيءٍ جاء بعكس ما خطَّطت له! لقد فكّرت بأن تتحوّل إلى خلود يقضي على كلِّ مستقبلٍ بينما المستقبلُ هناك من جديد، منيعاً، منتناً، مثيراً للاشمئزاز، مثل أفعى تتقلّب أمام عينيها، تتلوّى على ساقيها وتتقدَّم لتدلّها على الطريق.

في المعهد سرى خبر أنّها ضاعت وعادت نصفَ متجمّدة. فوبِّخوها على عدم التزامها بالنظام ولأنّها على الرغم من البرنامج راحت تتيه هناك مثل غبيّة، دون أن يكون عندها أدنى معرفة بالجهات للعودة إلى الفندق، المرئي تماماً من بعيد.

حين عادت إلى البيت رفضت الخروج إلى الشارع. أرعبتها فكرة اللقاء بالناس المعروفين. لكن والديها المصابين باليأس تدبّرا أمرهما بشكل حصيف لتغيير معهدها إلى معهد في مدينة قريبة.

آهِ، كلّ شيء جاء بعكس ما كانت تشتهي! لقد حلمت بأن تموت بشكلٍ غامِض. رتَّبت كلّ شيءٍ كيلا يستطيع أحدٌ أن يعرف ما إذا كان موتها حادِثاً أو انتحاراً. أرادت أن ترسل إليه موتها مثل علامةٍ سرّية، علامةِ حبٍّ من الماوراء هو وحده من يفهمها. أعدّت كلَّ شيءٍ بشكل جيّد، ربّما باستثناء كميّة المنوّمات، ربّما باستثناء الحرارة، التي ارتفعت بينما كانت تتخدّر. ظنّت أن الثلج سيدخلها

في الحلم وفي الموت، لكنّ الحلم كان مفرطاً في خفّته؛ فقد فتحت عينيها ورأت السماء سوداء.

كانت السماءان قد شطرت حياتها شطرين: السماء الزرقاء والسماء السوداء. تحت الأخيرة ستسير نحو موتِها، نحو موتِها الحقيقيّ، موتِ الشيخوخة البعيد والتافِه.

وهو؟ كان يعيش تحت سماءٍ ما عادت موجودةً بالنسبة إليها. وهي أيضاً ما عادت تبحث عنه وما عادت تبحثُ عنها. ذكراه لا تثير عندها الحبَّ ولا الكراهية. وحين كانت تُفكِّرُ به، كانت وكأنّها مُخدَّرة، بلا أفكار ولا عواطِف.

34

يعيشُ الكائن البشريّ بشكل متوسِّطَ حوالى ثمانين عاماً. وبحساب هذه المدّة يتصوّر كلّ شخص حياته وينظّمها. ما قلته الآن يعرفه الجميع، لكن قليلاً ما ننتبه إلى أنّ هذا الرقم الذي حُدد لنا ليس مجرّد معلومة كمّية ولا خارجية بشكل خاص (مثل طول الأنف أو لون العينين)، بل يُشكِل جزءاً من تعريف الإنسان نفسه. إن ذاك الذي يستطيع أن يعيش بكامل قواه، زمناً مضاعفاً، لنقل مئة وستين عاماً لن ينتمي إلى نوعنا نفسه. لن يبقى شيء كما كان في حياته، لا الحبّ، لا الطموحاتُ، لا شيء. إذا عاد مُهاجِر بعد عشرين عاماً من العيش في الغربة إلى بلده الأصلي وأمامه مئة عام آخر، فإنّه لن يشعر بلهفة العودة الكبرى، وربّما لن تكون بالنسبة إليه عودة، بل مجّرد جولة من جولات كثيرة يقوم بها على امتداد مجرى حياته.

لأنّ فكرة الوطن ذاتها، بالمعنى النبيل والعاطفي للكلمة، مرتبطة بحياتنا القصيرة نسبياً، والتي تمنحنا وقتاً أقصر كي نتمكن من التعلّق ببلدٍ آخر، بلدان أخرى، ولغاتٍ أخرى.

يمكن للعلاقات الإيروسية أن تملأ حياة الراشِد. لكن لو كانت الحياة أطول بكثير، ألن يُخْمِدَ الإنهاكُ القدرةَ على الإثارةِ قبل أن تغرب الطاقة الجسدية؟ لأنَّ هناك فرقاً هائلاً بين الجماع الأوّل، العاشِر، المئة، الألف، وغير المحدَّد. أين سيكون الحدّ الذي سيصبح التكرار بعدَه نمطيّاً، إن لم يكن هزليّاً بل ومحالاً؟ ثمّ ما الذي سيجري بالنسبة للعلاقة الغرامية بين رجلٍ وامرأة حين يتم تجاوز هذا الحدّ؟ هل ستختفي؟ أم على العكس سيعتبر الحبيبان المرحلةَ الجنسيةَ من حياتهما مرحلةَ الوحشية ما قبل التاريخية لحبٍّ حقيقيّ؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة سهلة سهولة تصوّر سيكولوجية سكّان كوكبٍ مجهول.

ربّما نشأت فكرة الحبّ (الحبّ الكبير، الحبّ الوحيد) أيضاً من محدوديّة الزمن الممنوح لنا. لو لم يكن لهذا الزمن حدود هل كان جوزيف سيشعر بكلّ هذا التعلّق بزوجته المتوفاة؟ نحن الذين سيكون من نصيبنا أن نموت باكِراً لا نعرف.

35

الذاكرة أيضاً لا يمكن أن تُدرك دون مقاربة رياضية. إن المعلومة الأساسية تقوم على العلاقة الرقمية بين زمن الحياة المُعاشة وزمن الحياة المُخزَّنة في الذاكِرة. لم نُحاوِل قط أن نحسب هذه العلاقة، ثمّ إنّنا لا نملك وسيلة تقنية لفعل ذلك، ومع ذلك أستطيع أن أفترض دون مجازفات كبيرة بالخطأ، أنّ الذاكرة لا تحتفِظ إلا بجزء من مليون، من ألف مليون، أي جزء هزيل جدّاً، من الحياة المُعاشة. وهذا أيضاً يُشكّل جزءاً من جوهر الإنسان نفسه. لو استطاع أحد ما أن يحتفِظ في ذاكرته بكلّ المُعاش، لو استطاع أن يستحضِر متى شاء أيّ جزء من ماضيه، لما كان له علاقة بالكائن البشري: فلا حبّه ولا صداقاته ولا كراهياته ولا قدرته على الصفح أو الانتقام ستشبه مثيلاتها عندنا.

لن نتعبَ أبداً من نقد من يُشوِّهون الماضي، يُعيدون كتابتَه، يُزوِّرونه، ويُبالِغون بأهمِّيّة حدَثٍ أو السكوت عليه. هذه الانتقادات مُبرَّرة (لا يمكن إلاّ أن تكون كذلك)، لكنّها تخلو من الأهميّة، ما لم يسبقها نقد أكثر بساطة: نقد الذاكرة البشرية بوصفها كذلك. إذ ماذا تستطيع ذاكرتُها المسكينة أن تفعل واقِعياً؟ وهي ليست قادرة على أن تحتجز من الماضي إلا جزءاً يسيراً، دون أن يدري أحدٌ لماذا هذا الجزء وليس غيره، فهذا الاختيار يُصاغ بطريقة غامِضة في كلّ واحدٍ منّا بعيداً عن إرادتنا ومصالحنا. لن نفهم شيئاً عن الحياة الإنسانية ما لم نُصرّ على انتشال أوّل البديهيات جميعها: إنَّ واقعاً كانَ لايبقى كما كان، واسترداده مُحال.

حتى أكثر الأرشيفات وفرة تبدو عاجِزة عن ذلك. لنأخذ يوميات جوزيف القديمة كجزءٍ من أرشيف يحتفِظ بملاحظات الشاهِد الحقيقيّ على ماض ما، إن هذه الملاحظات تتحدَّث عن أعمالٍ لا يملك صاحبها دواعٍ لنكرانها، لكنّ أيضاً لا تستطيع ذاكرته أن تؤكِّدها. من بين جميع ما ترويه اليوميات هناك تفصيل وحيد يضيء ذكرى صافية وهي لا شكّ دقيقة: لقد رأى نفسه في درب عبر الغابة يحكي لطالبة ثانوية كذبة انتقاله إلى براغ. هذا المشهد القصير، أو بدقّة صارمة، ظلَّ هذا المشهد (بما أنّه لا يتذكّر إلاّ المعنى العام لتعليقه وأنه كذب) هو الجزء الوحيد من حياته، الراقد الذي يبقى في ذاكرته. لكنّه بقي معزولاً عمّا سبقه وما تلاه: ما التعليق، ما الفعل الذي قامت به الطالبة الثانوية الذي دفعه لابتداع هذه الكذبة؟ ماذا حدث بعدها؟ كم استمرّ في خديعته؟ وكيف خرج منها؟

لو أراد أن يحكي هذه الذكرى كطرفة لها أساس ورأس لوجدَ نفسَه مُجبراً على أن يُدخِل أحداثاً أخرى في هذا المشهد السببي، أعمالاً أخرى وكلمات أخرى، وبما أنّه نسي، لن يبقى أمامه إلا أن

يبتدعها، وهذا ما فعله لنفسه حين كان ما يزال منحنياً فوق صفحات اليوميات:

كان التافه يفقد صوابه لأنّه لا يجد أيّ إشارة للنشوة في حبّ فتاته؛ حين لمس مؤخّرتها بيده أزاحتها؛ ولكي يُعاقِبها قال لها إنّه سينتقل إلى براغ؛ فتركته، وقد امتلأت حزناً، مدّ يدَه، فصرّحت له بأنّها تتفهّم الشعراء الذين يبقون أوفياء حتى الموت؛ أي أنَّ كلَّ شيء جاء كما يبغي. بعد أسبوعٍ أو أسبوعين، استنتجت الفتاةُ أنّ من الأفضل لها، نظراً لأنّ صديقَها يريدُ أن ينتقلَ، أن تستبدله بآخرَ في الوقت المناسب؛ فبدأت تبحثُ عنه. تكهّن التافه بذلك، ولم يستطع أن يكبح غيرته، وبذريعة الذهاب إلى الجبل ركّب لها مشهد الهستيريا ذاك، فعرّض نفسه للسخرية، وتركته.

حتى لو أراد جوزيف أن يقترب من الحقيقة بأكبر قدرٍ ممكن ما كان باستطاعته الزعم أن حكايته مماثلة تماماً لما عاشه واقعياً؛ كان يعرف أنّ الأمر يتعلّق بمقاربة صغيرة من شبه الحقيقة كي يُغطّي على ما صار طيَّ النسيان.

أتصوَّر تأثّر كائنين يعودان ليلتقيا بعد سنواتٍ طويلة. في أزمنة أخرى كانا قد تعاشرا ويعتقدان أنّهما متآلفين بالتجربة ذاتها والذكريات ذاتها. الذكريات ذاتها؟ هنا تماماً يبدأ سوء الفهم: ليس لهما الذكريات ذاتها، وكلاهما يحتفظ من الماضي بحالتين أو ثلاث حالات مقتضبة، لكنّ لكلّ واحد منهما حالاته. نكرياتهما لا تتشابه، لا تلتقي، حتى كمّياً لا يمكن أن يُقارن بعضُها ببعض: واحدٌ منهما يتذكّر عن الآخر أكثر مما يتذكّر هذا عنه. أوّلاً لأنّ قدرة الذاكرة تختلف من شخصٍ لآخر (وهو ما قد يكون جواباً مقبولاً لكلٍّ منهما) ثم ثانياً لأنّ أهمية الواحد منهما للآخر ليست ذاتها (وهو مايصعب تصديقه). حين رأت إرِنا جوزيف في المطار، تذكّرت كلَّ تفصيل في مغامرتها الماضية؛ وجوزيف لم يتذكّر أيّ

شيء. منذ اللحظة الأولى بقي لقاؤهما موسوماً بلا مساواة ظالمة ومهينة.

36

حين يرى كائنان بشريان يعيشان في مسكنٍ واحدٍ بعضهما بعضاً كلّ يومٍ وإضافة إلى ذلك يُحب أحدهما الآخر، فإنّ أحاديثهما اليومية تولّف ذاكرتيهما: وبموافقة ضمنية وغير واعية يتركان في النسيان مساحات كبيرة من حياتهما. يتحدّثان ويعودان ليتحدّثا عن عددٍ محدودٍ من الأحداث التي ينسجون بها الحكاية ذاتها، فتهمس فوق رأسيهما مثل نسمة بين الأغصان وتذكّرهما دائماً بأنّهما عاشا معاً.

حين مات مارتين جرَفَ سيلُ الهمومِ إرِنا بعيداً عنه وعن الذين كانوا يعرفونه. اختفى من الأحاديث، حتى بنتاه اللتان كانتا صغيرتين جدّاً حين كان حياً ما عادتا تسألان عنه. وذات يوم التقت بغوستاف، الذي ولكي يطيل أحاديثه اعترف لها أنّه كانَ يعرف زوجها. كانت هذه آخر مرّة لها مع مارتين؛ كان قويّاً، مهمّاً، صاحب نفوذ، يفيدها بالاتصال مع عشيقها المقبل، ثم اختفى بعد قيامه بهذا المهمّة إلى الأبد.

كان مارتين قد جاء بإرِنا إلى بيته في براغ قبل زواجهما بكثير، وبما أنّه كان يملك مكتبته ومكتبه في الدور الأوّل فقد جهّز الطابقَ الأرضيَّ لحياته الزوجيّة، لحياته كأب؛ وقبل ذهابه إلى فرنسا تنازل عن البيت إلى حماته، التي كانت خلال ذلك قد أصلحته كلّياً، ووضعت، بعد عشرين عاماً، الدورَ الأوّل منه تحت تصرّف غوستاف. حين ذهبت ميلادا لزيارة صديقتها إرِنا هناك، تذكّرت زميلها القديم: «هنا كان يعمل مارتين»، قالت متفكّرةً. ومع ذلك لم

يُطلّ ولا حتى شبح مارتين بعد هذه الكلمات. فمنذ زمنٍ طويل كان قد أُخلي هو وكلّ ظلاله؟

بعد موت زوجته تبيّن أن هَمْس حياته الماضية راح يضعف دون أحاديث يومية. ولكي يعزّزه، جهد في أن يعود ويعيش صورة زوجته، لكنّ فقر النتيجةِ أثبطه. كانت لها عشر ابتسامات ونتَف مختلفة. أجبر خياله على رسمها، ففشل في المُحاوَلة. كانت لها مَلَكَةُ الإجابات الطريفة والسريعة التي تسحره، فلم يقدر على استحضار أيٍّ منها. سأل نفسه ذات يومٍ: لو جمع الذكريات المشتركة التي بقيت له من حياتهما المشتركة واحدة واحدة، كم ستكون مدّتها؟ دقيقة؟ دقيقتان؟

هذا لغزٌ آخر من ألغاز الذاكرة، أساسيّ أكثر ممّا عداه: هل يمكن قياسُ حجم الذكريات الزمنيّ؟ هل تتطوّر في مدّة زمنية؟ إنه يريد إعادة تركيب أوّل لقاء: فيرى درجاً يهبط من الرصيف إلى شبه قبوٍ ومقهى؛ يرى أزواجاً من البشر معزولة في شبه عتمة ضاربة للصفرة؛ يراها، وكأس أغوارديينتِ في يدها، فتمعن النظرَ فيه بابتسامة خجولة. يراقبها خلال دقائق طويلة بالكأس في يدها وبابتسامتها، يتفحّص وجهها. تلك اليد، وهي ستبقى خلال كلّ هذا الزمن بلا حراك، لن ترفع الكأس إلى فمها، ولن تُعدِّل من ابتسامتها مثقال ذرّة. وهنا يكمن الرعب: الماضي الذي يتذكّره المرءُ ليس له زمن. من المحال أن نعود لنعيش حبّاً كما نعود لنقرأه في كتابٍ أو نراه في فيلم. فما أن ماتت زوجة جوزيف حتى لم يعد لها أيّ بعدٍ، ماديّ أو زمنّي.

وهكذا سرعان ما انتقلت جهوده لبعثها لتصبح عذاباً لعقله. فبدل أن يُسعَد لأنّه أعاد اكتشافَ هذه اللحظة المنسية أو تلك يشعر باليأس من هول الفراغ الذي يحيط بهذه اللحظة. وذات يومٍ رفض

متابعة هذا التجوال المؤلم في ممرات الماضي ووضع نهاية لمحاولات إعادة إحيائها كما كانت. بل وقال لنفسه أنّه كان بذلك التركيز على حياته الماضية يقصيها إلى متحف الأشياء المفقودة ويلفظها من حياته.

ثمّ إنّهما لم يقدّما إعجاباً مفرطاً بالذكريات. طبعاً لم يخرّبا رسائلهما الحميمة، ولا المذكّرات التي راحا يسجلان فيها واجباتهما ولقاءاتهما، لكن لم يخطر لهما قط أن يعيدا قراءتها. إذن قرّر أن يعيش مع الميتة كما عاش مع الحيّة. لم يعد إلى قبرها ليتذكّرها، بل ليكون معها، ليرى عينيها تنظران إليه، لكنّهما تنظران إليه ليس من الماضي، بل من اللحظة الحاضرة.

هكذا بدأت حياة جديدة بالنسبة له: معاشرة الميتة. إن ساعة جديدة بدأت تنظّم له الوقتَ. هي المُحبّةُ للنظافة كانت تغضب منه بسبب الفوضى التي يُخلِّفها وراءه في كلّ مكان. منذ تلك اللحظة صار ينظّم كلَّ شيء بعناية، لأنّه يحبّ منزله الآن أكثر من قبل: السياج الخشبي وبابه الصغير؛ الحديقة، شجرة التنوب أمام بيت القرميد الأحمر الداكن؛ الكرسيان الكبيران أحدهما مقابل الآخر حيث كانا يجلسان عند العودة من العمل؛ وإفريز النافذة حيث كانت تضع في جانب منه إبريقاً فيه أزهار وفي جانب آخر مصباحاً. كانا خلال غيابهما يتركان المصباح مُضاءً كي يرياه من بعيد، من الشارع المؤدّي إلى البيت. وهو ما زال يحترم هذه العادات مجتمعةً، وكلَّ واحدة على انفراد ويعمل على أن يكون كلُّ كرسيّ، كلُّ كأسٍ في المكان الذي كانت تُحبّ أن تضعه.

كان يعود ليزور الأماكن التي أحبّاها: المطعم على شاطئ البحر ـ حيث لا ينسى صاحبُه أبداً أن يذكّره بالسمك الطازج المفضّل لدى زوجته ـ في المدينة الصغيرة المجاورة بساحتها

المستطيلة وبيوتها المطلية بالأحمر والأزرق والأصفر ذات الجمال المتواضع الذي كان يسحرهما، أو خلال زيارة إلى كوبنهاغن، أو المرفأ الذي تخرج منه كلَّ يوم وفي السادسة مساء باخرةٌ كبيرة بيضاء إلى البحر. والتي كي ينظرا إليها كانا قادرين على المكوث هناك بلا حراك دقائقَ طويلة. كانت تُسمع منها، قبل رفع المرساة، موسيقى جاز قديم كدعوة للسفر. منذ موتها صار يتردَّد إلى هناك. يتصوّرها إلى جانبه ويشعر بالرغبة المشتركة بركوب ذلك المركب الليلي الأبيض، بالرقص في قاعاته، بالنوم والاستيقاظ في أيّ مكان، بعيداً جدّاً في الشمال.

كانت تُحبّ أن يكون أنيقَ الثياب وأن تهتمّ بنفسها بلباسه. لم ينسَ ما القميص الذي كانت تُفضّله وما الذي لا تُحبّه. وخلال وجوده في بوهيميا ارتدى عمداً طقماً كان أمره سيّان عندها. لم يبغ أن يعطيه أهمية زائدة، فهي ليست رحلة إليها ولا معها.

37

إرِنا المتعلّقة بموعد اليوم التالي، تريد أن تقضي هذا السبت هادئة، مثل رياضيّ قبل يوم المباراة. وغوستاف يعمل في مركز المدينة، حيث سيكون عنده غداء عملٍ مملٍّ، ثمّ إنّه لن يكون هذه الليلة في البيت. لذلك تستغلُّ وحدتها، تنام حتى المساء، ثمّ تُقرّر ألاّ تخرج، في محاولة منها ألاّ تصادف أمّها. تستمرّ الحركةُ في الدور السفلي ولا تتوقّف حتى منتصف النهار. حين تسمع إرِنا صفقةَ الباب أخيراً وتتأكّد من أنّ أمّها خرجت، تهبط إلى المطبخ لتأكل شيئاً وهي ساهية، ثم تذهب بدورها.

تتوقّف على الرصيف مسحورةً فجأة. كان ذلك الحيُّ يتكشّف، بحدائقه المزروعة وبيوته الصغيرة تحت شمس الخريف، عن

جمالٍ رصين يُباغِتُها ويحثّها على أن تقوم بنزهة طويلة. فتتذكّر أنّها رغبت بالقيام بمثل هذه النزهة قبل أيّام من هجرتها بهدف وداع تلك المدينة وكلّ الشوارع التي أحبّتها، لكّن ظهرت لها مسائل أكثر من اللازم كان عليها أن تنظّمها فلم تملك الوقت.

براغ حيث تتنزّه الآن وشاحٌ طويل أخضر ذو أحياء وديعة وشوارع صغيرة مُعَلَّمَة بالأشجار. هذه هي براغ التي تُحبّها وليس براغ المركز الفخمة. براغ هذه التي انبثقت في نهايات القرن الماضي، براغ البرجوازية التشيكية الصغيرة، براغ طفولتها، حيث كانت تتزلّج شتاءً في شوارعها الضيقة، التي تصعد وتهبط، براغ التي تتغلغلُ فيها الغاباتُ المُحيطة بها سرّاً ساعةَ الغروب كي تنثر عطرها.

تسير إرنا متفكّرةً فتلمحُ باريسَ لثوانٍ، والتي تبدو لها لأوّل مرّة معادية: هندسة جادّاتٍ باردة، الحقول الفردوسيّة المفعمة بالاعتزاز، ووجوه قاسية لنساء حجريات عملاقة تُجسّد المساواة أو الأخوّة، لكن ما من مكان، ما من مكان توجد فيه لمسة من هذه الحميمية اللطيفة، نفحة من هذا الهواء المثالي التي تُستنشَق هنا. ثمّ إنّ هذه هي الصورة التي احتفظت بها كشعار لبلدها المفقود، على امتداد سنوات هجرتها كلّها: بيوت صغيرة وسط حدائق تمتدّ في الجبال والوديان وعلى مدّ البصر. شعرت بنفسها سعيدةً في باريس، أكثر من هنا، لكنّ رباطاً سرّياً من الجمال أبقى على ارتباطها ببراغ فقط. فتُدرك فجأةً كم تُحب هذه المدينة كم يجب أن يكون هجرُها مؤلماً.

تتذكّر إعياء الأيّام الأخيرة: ففي فوضى أشهر الاحتلال الروسي الأولى، كانت مغادرة البلد ما تزال سهلة ويستطيع المرء أن يودّع أصدقاءه دون خوف. لكنّها لم تملك إلا القليل من الوقتِ كي تراهم جميعاً. باندفاعٍ مفاجئ وقبل يومين من ذهابهما زارا

صديقاً قديماً عازباً، وقضيا معه ساعاتٍ مؤثّرة. ولم يعلما إلا فيما بعد حين أصبحا في فرنسا، بأنّه إذا كان ذلك الرجل قد أولاهما كلَّ ذلك الاهتمام فلأنّه كان مُعيّناً من الشرطة لمراقبة مارتين. وقبل ذهابها بيوم طرقت باب صديقة لها دون إعلامها. فاجأتها وهي في أوج نقاشٍ مع امرأة أخرى. وحضرت دون أن تفتح فمها حديثاً طويلاً لا يخصّها، عبثاً انتظرت حركةً، جملةً تريحها، كلمةَ وداع. هل نسوا أنّها كانت ستذهب؟ أم كانوا يتظاهرون بأنّهم نسوها؟ أم صار سيّان عندهم حضورها أو غيابها؟ وأمّها، لم تقبّلها لحظةَ الوداع. لقد قبّلت مارتين، ولم تُقبّلها. ضغطت على كتف إرِنا بقوّة بينما كانت تهتف بصوتها الجهوري: «لسنا من أنصار إظهار عواطِفنا!» أرادت هذه الكلمات أن تكون قلبية بشكلٍ رجولي، لكنّها جاءت جليدية. حين تذكّرت الآن تلك الوداعات (الوداعات الزائفة، الوداعات الاصطناعية) قالت لنفسها: من يخسر وداعه لا يمكن أن ينتظر من اللقاءات اللاحقة إلا القليل.

منذ ثلاث أو أربع ساعات وهي تسير في تلك الأحياء الخضراء. تصل إلى حاجز يحيط بحديقة صغيرة في أعالي براغ: ومن هناك تُشاهد القلعة من الخلف، من الجانب السرّي؛ براغ التي لا يخطر ببال غوستاف أنّها موجودة. وسرعان ما تخطر ببالها الأسماء التي طالما أحبّت استحضارها في شبابها: ماتشا، شاعر الأزمنة التي كانت تنبعث فيها أمّتها مثل حوريّة من الضباب؛ نيرودا القاص التشيكي الشعبي؛ فوسكوفيك وفيريتش بأغانيه في الثلاثينيات الذي كثيراً ما كان يعجب والدها الذي مات وهي طفلة؛ هرابال وسكفورِكي، روائيّا مراهقتها، المسارح الصغيرة وكباريهات الستينيات الحرّة، الحرّة جدّاً بروح دعابتها الوقحة. هي حملت معها إلى فرنسا عطر هذا البلد الذي لا يُنقل، جوهره غير الماديّ.

تنظر إلى القلعة مستنِدَةً إلى الحاجز: كان يكفيها ربع ساعة للوصول إليها. هناك تبدأ براغ بطاقاتِ البريد، براغ التي طبع التاريخُ، أسيرُ الهذيان، سماته المتعدِّدة عليها، براغ السياح والعاهرات، براغ تلك المطاعم الفخمة التي لا يستطيع أصدقاؤها التشيك أن يتردَّدوا عليها، براغ الراقصة تطوف أمام البرجكتورات، براغ غوستاف. فتقول لنفسها إنّه لا يوجدُ مكان غريب عليها كهذه البراغ. مدينة غوستاف، بلدة غوستاف، قرية غوستاف، حاضرة غوستاف، ناحية غوستاف.

غوستاف: إنها تراه بملامحه المشوّهة خلف زجاج لغةٍ مُطْفأ تعرفها هي بشكلٍ سيّئٍ، وتقول لنفسها شبه راضية هكذا هي المسألة، لأنّ الحقيقة تكشّفت لها توّاً: لا تشعر بأيّ حاجة كي تفهم عليه أو يفهم عليها. تراه مرِحاً وهو يرتدي القميص ويصرخ: كافكا وُلِد في براغ، وتشعر بنفسها مُجتاحَةً برغبة، رغبةٍ جامحة بأن يكون عندها عشيق. لا لتعيد تركيب حياتها تماماً كما هي، بل لتقلبها رأساً على عقب، ليكون لها أخيراً قدرها الخاصّ بها.

لأنّها عملياً لم تختر أيّ رجلٍ أبداً. هم الذين اختاروها دائماً. لقد انتهت بأن أحبّت مارتين، لكنّها في البداية لم تفترض غير أنّه هروب من أمّها. في مغامرتها مع غوستاف ظنّت أنّها عثرت على حرّيتها. لكنّها تُدرِك الآن أنّه لم يكن إلا تنويعاً لعلاقتها مع مارتين: تمسّكت بيدٍ ممدودةٍ ساعدتها على الخروج من الظروف الشاقّة التي لم تكن قادرة على تحمّلها.

تعرف أنّها موقوفة للامتنان، ودائماً تباهت بأنه فضيلتها الرئيسية؛ حين كان الامتنان يأمرها يغزوها شعور بالحبّ، مثل خادمة وديعة. استسلمت بصراحة لمارتين كما لغوستاف أيضاً. لكن هل من فخار في ذلك؟ تُرى أليس الامتنان اسماً آخر للضعف، للتبعية؟ ما ترغب به الآن هو حبّ خالٍ من أيّ امتنان. عرفت أنّها

للحصول عليه يجب أن تدفع ثمنه فعل إقدامٍ مجازِف. وفي حياتها الغرامية لم تكن قط مقدامة، بل كانت تجهلُ ماذا يعني هذا.

فجأة مثل هبّة ريح: استعراضٌ سريع لأحلامِ هجرةٍ قديمة، ضيقٍ قديم: ترى نساءً يأتين، يحطن بها بضحكاتهنّ الخبيثة، يرفعن أباريق بيرة، ويمنعنها من الهرب. وهي في حانوت فيه نساء أخريات، ربّما كنّ بائعات، ينقضضن عليها، يُلبسنها فستاناً يتحوّل على جسدها إلى قميص مجنونة.

تمكث وقتاً طويلاً مستندة إلى الحاجز، ثمّ تستقيم. لقد أقنعت نفسها وتيقّنت أنها ستهرب؛ أنّها لن تبقى في تلك المدينة، لا فيها ولا في الحياة التي بدأت تحيكُها لها.

تدير ظهرها للقلعة وتشرع بالعودة عبر الشوارع الغارقة بالخضرة. تقولُ لنفسها بأنّها قامت اليومَ بنزهة الوداع التي أخفقت بها آنذاك. تقومُ أخيراً بالوداع الكبير من المدينة التي أحبّتها أكثر من جميع المدن وتستعد مرّةً أخرى للضياع، دون ندمٍ، كي تستحقّ حياتها اللائقة بها.

38

حين غادرت الشيوعيةُ أوروبا، ألحّت زوجةُ جوزيف عليه كي يعود ويزور بلدَه. أرادت أن تُرافِقَه لكنّها ماتت، ومنذ تلك اللحظة لم يتصوّر شيئاً آخر غير حياته الجديدة مع الغائبة. كان يُجهد نفسه كي يقتنع بأنّها حياة سعيدة. لكن هل يمكن الكلام هنا عن السعادة؟ نعم، سعادة تخترقُ ألمه، ألمه الإذعاني، الوقور والمتواصل مثل شعاع مرتعش. تذكّر، منذ شهر، وهو غير قادرٍ على الخروج من حزنه، كلماتِ الميتة: «أن تتخلّى عن الذهاب سيكون شيئاً غير عاديّ، غير مبرّر، بل وقبيحاً». وبالفعل فإنّ الرحلة التي طالما

حثّته عليها، يمكن أن تُساعِدَه اليوم؛ أن تحرفه، على الأقل لعدّة أيام، عن حياته ذاتها التي تُسبّب له أذىً كبيراً.

حين كان يُحضِّرُ نفسه للسفر خطرت برأسه فكرة بشكل وجلٍ: وماذا لو بقي هناك للأبد؟ فهو بعد كلّ حساب يستطيع أن يواصِل ممارسة مهنته كبيطري في بوهيميا تماماً كما في الدانمارك. وكان هذا قد بدا له حتى تلك اللحظة غيرَ مقبول، شبهَ خيانة لزوجته التي كان يُحبُّها. لكنّه سأل نفسه: هل هي فعلاً خيانة؟ إذا كان حضور زوجته غير مادّي، فلماذا ستبقى مرتبطةً بماديةِ مكانٍ وحيد؟ ألا تستطيع أن تكون معه في بوهيميا كما في الدانمارك؟

خرج من الفندق، يتنزّه في السيّارة؛ يتناول غداءه في استراحة في الريف. ليمشي بعدها عبر دروب، وورد برّي، أشجار وأشجار؛ فيتأثّر بشكلٍ غريب، ينظر باتجاه الأفق إلى رواب مغطاة بالنباتات فتباغته فكرة أن التشيك خلال حياته كانوا مستعدين في مناسبتين للموت من أجل أن يبقى هذا المنظر لهم: في العام 1938 عندما ناضلوا ضدّ هتلر، وحين حرمهم منه حلفاؤهم الفرنسيون والإنكليز فقدوا كلَّ أمل. وفي العام 1968 حين غزا الروسُ البلدَ وأراد التشيكون أن يُناضلوا من جديد، فوجدوا أنفسهم غارقين في اليأس وقد حُكم عليهم أن يستسلموا بالطريقة ذاتها.

الاستعداد لتقديم الحياة في سبيل الوطن: إن جميع الأمم عرفت إغواءات التضحية. خصوم التشيكيين من جهتهم عرفوها أيضاً: الألمان والروس. لكنّهما شعبان كبيران. وطنيَّتُهم مختلفة: إنّهم متأثرون بمجدهم، بأهمّيتهم، بمهمّتهم الكونية. أما التشيكيون فكانوا يُحبّون أمَّتهم ليس لأنّها مجيدة، بل لأنّها مجهولة؛ ليس لأنّها كبيرة، بل لأنّها صغيرة وفي خطرٍ دائم. الوطنية كانت بالنسبة إليهم رأفة عظيمة ببلدهم. مثل الدانماركيين. وليس مصادفة أن يختار جوزيف بلداً صغيراً للهجرة.

يتأمّل المنظر متأثّراً ويقول لنفسه إنّ تاريخ بلده بوهيميا خلال هذا النصف الأخير من القرن فريد ومذهِل ولا نظير له، وعدم الاهتمام به برهان على فقر الروح. غداً صباحاً سيذهب لمقابلة «ن». ترى كيف عاش خلال كلّ هذا الزمن الذي لم يشاهِدا فيه بعضهما؟ ماذا كان رأيه بالاحتلال الروسي لبلده؟ وكيف عاش نهاية الشيوعية التي كان يؤمِن بها في أزمنة أخرى بصدقٍ ونزاهة؟ كيف سيوائم بين تكوينه الماركسي واستعادة الرأسمالية التي هُلِّلَ لها في جميع أنحاء الكوكب؟ هل تمرَّدَ؟ أمْ أنّه هجر قناعاته؟ وإذا كان قد هجرها، هل هي مأساة بالنسبة إليه؟ كيف سيتصرّف الآخرون معه؟ راح يسمعُ صوت زوجة أخيه التي كانت كصائدة لمذنبين، فتمنّى، دون شكٍّ، أن يراه مكبّلاً أمام محكمة. هل سيحتاج «ن» من جوزيف أن يؤكّد له أنّ الصداقة موجودة على الرغم من تقلبات التاريخ؟

يعود تفكيره إلى زوجة أخيه: كانت تكره الشيوعيين لأنّهم شكّكوا بحقّ الملكية المقدّس. ومع ذلك شكّكت هي، قال لنفسه، بحقيّ المقدّس في لوحتي. يتصوَّر هذه اللوحة معلّقة على جدار في بيته القرميدي، وفجأة ينتبه مذهولاً إلى أنّ ذلك الحيّ العمالي في الضواحي، دريان التشيكي ذاك، تلك الغرابة في التاريخ، سيكون وجودها مزعجاً في بيته، دخيلاً. كيف خطر له أن يأخذها! هناك حيث يعيش مع ميتته لا مكان للوحة. لم يُكلّمها عنها قط. لم يكن لها علاقة بها، بهما، بحياتهما.

ثمّ يُفكّرُ: إذا كان باستطاعة لوحة صغيرة أن تزعِج تعايشه مع الميتة، فكم سيكون الوجود الدائم والمُلح لبلد بكامله، لبلد لم تره هي أبداً مزعجاً لها!

تهبط الشمسُ نحو الأفق بينما يتوجّه هو إلى براغ، فيهرب المنظرُ من حوله، منظرُ بلدٍ صغير الناس فيه مستعدون لأن يموتوا

من أجله، ويعرف أن هناك ما هو أصغر، يُطالب به حبّه الرؤوم: يرى كرسيين كبيرين متقابلين، مصباحاً وإبريق أزهار على إفريز النافذة وشجرة التنوب الرشيقة التي زرعتها زوجته أمام البيت، شجرة تنوب مثل ذراع ترفعه هي لتشير إليه من بعيد إلى بيته.

39

إذا كان سكاسِل قد حبس نفسه كي يقضي في بيت الحزن ثلاثمئة سنة، فذلك لأنّه رأى بلده مبتلعاً لأبد الآبدين من قبل إمبراطوريّة الشرق. لقد أخطأ. كلّ الناس يُخطئون من ناحية المستقبل. لا يمكن للكائن البشريُ أن يكون واثقاً إلاّ من لحظته الراهنة. لكن، هل الأمر هكذا فعلاً؟ هل يستطيع عمليّاً أن يَعرف الحاضِر؟ هل هو قادر على الحكم عليه؟ طبعاً لا. إذ كيف يمكن أن يُدركَ اتجاهَ الحاضر من لا يعرف المستقبل؟ إذا كنّا لا نعرف إلى أيّ مستقبل يقودُنا الحاضِرُ، فكيف سنستطيع أن نقول إنّ هذا الحاضر جيّد أو سيّئ، ويستحقّ انضمامنا إليه، وعدمَ ثقتنا أو كراهيتنا؟

في العام 1921 يُعلن أرنولد شونبِرغ أنّ الموسيقى الألمانية ستستمرّ بفضله خلال السنين المئة القادمة، سيّدةَ العالم. بعد خمسة عشر عاماً يرى نفسه مضطرّاً لمغادرة ألمانيا. بعد الحرب وفي الولايات المتحدة، حيث غمروه بالتكريم، بقيَ مقتنعاً بأنَّ المجدَ لن يتخلّى قط عن أعماله. ويأخذُ على إيغور سترافنسكي تفكيره الزائد بُمعاصريه وإهماله لإملاءات المستقبل. يعتبر الأجيال التالية حليفه الأوثق. وفي رسالة لاذعة موجّهة إلى توماس مان يعلّق آماله على المرحلة التي «بعد مئتي أو ثلاثمئة سنة» عمن سيعرف منهما، من هو الأعظم مان أم هو! لكنه مات عام 1951. في العقود التالية اعتبرت أعماله أعظم أعمال القرن، وبجّلها ألمع الملحنين

الشبان الذين كانوا يُعلنون أنّهم تلامذته، لكنّه راح يبتعد بعد ذلك عن قاعات الموسيقى كما عن النخبة. من هو الذي يعزف أعماله في نهايات هذا القرن؟ من يذكره؟ لا، لا أريدُ أن أسخر من جبروته، وأقول إنّه بالغ في تقديره لنفسه. لا ألف مرّة! شونبِرغ لم يكن يبالغ في تقديره لنفسه. كان يبالغ في تقديره للمستقبل.

تراه ارتكب خطأً في التفكير؟ لا. كان يُفكّر جيّداً، لكنّه كان يعيش في أجواء راقية أكثر من اللازم. كان يُصارع أعظم الموسيقيين في ألمانيا، باخ، غوته، براهمز، ماهلر، لكن مهما كانت هذه الصراعات ذكيّة إلاّ أنها حين تتم في منازل الروح الرفيعة، تكون قصيرة النظر بالنسبة إلى ما يجري في الأسفل بلا سبب ولا منطقٍ: إذ يستطيع جيشان كبيران أن يتصارعا حتى الموت من أجل قضايا مقدَّسة، لكن بكتيريا صغيرة ونتنة تقضي دائماً على الإثنين.

شونبرغ كان واعياً لهذه البكتيريا. فهو قد كتب في العام 1930: «المذياع عدوّ، عدوّ لا يرحم يتقدّم بشكلٍ لا يقاوَم وكلّ مقاومة ضدّه عبث.»، المذياع: «دون أي إحساس بالأبعاد يغرقنا بالموسيقى (...)، دون أن يتساءل ما إذا كنّا نريد أن نستمع إليها، ما إذا كان لدينا الإمكانية لتلقيها»، وبذلك تصبح الموسيقى مجرّد ضوضاء، ضوضاء بين ضوضاءات أخرى.

كان المذياع الجَدْوَلَ الذي بدأ به كلّ شيء. ثم جاءت بعده وسائل تقنية أخرى لإعادة إنتاج الصوت ومضاعفته وزيادته، وتحوّل الجدول إلى نهرٍ هائلٍ. إذا كان الناسُ يستمعون في الماضي إلى الموسيقى حبّاً بالموسيقى، فهي تعوي اليوم في كلّ مكان، «دون أن يتساءل ما إذا كنّا نريد أن نستمع إليها»، تعوي في مكبرات صوت السيارة، في المطاعم، في المصاعِد، في الشوارِع، في قاعات الانتظار، في قاعات الجمباز، في الآذان المسدودة بـ

«الووك مان»؛ موسيقى معادة الصياغة، معادة العزف على آلات أخرى، موقّعة، منخلعة، أجزاء من الروك، الجاز، الأوبرا، الدفق الذي يختلط فيه كلّ شيء، دون أن يُعرَف من هو الملحّن (الموسيقى المتحوّلة إلى ضوضاء مجهولةُ المؤلف) دون أن تُميِّز البداية عن النهاية (الموسيقى المتحوّلة إلى ضوضاء لا تعرف الأشكال): ماء الموسيقى القذر الذي تموت فيه الموسيقى.

إذن كان شونبِرغ يعرف البكتيريا، كان واعياً للخطر، لكنّه لم يكن في أعماقه يوليها انتباهاً. فهو، كما قلتُ، كان يعيش في أعلى منازل الروح وكان الكبرياء يمنعه من أن يأخذ مأخذ الجدّ عدوّاً بهذا الصغر، بهذه الدهمائية، بهذا الاشمئزاز، بهذا الاحتقار. إن الخصم الوحيد الجدير به، المنافس الأرفع، الذي كان يقاتِلُ ضدّه بجسارة وصرامة هو إيغور سترافنسكي. بحيث أنّه انتهى إلى الصراع ضدّ موسيقاه ذاتها كي يكسب حظوة المستقبل.

لكنّ المستقبلَ تحوّل إلى نهر هائلٍ، طوفان من النغمات الذي تطفو فيه جثث الملحنين بين الأوراق الميتة والأغصان المقتلعة. وذات يوم اصطدم جسد شونبِرغ الميت، الذي كان طوع تقلّب الأمواج الهائجة، بسترافنسكي فتابعا رحلتهما في مُصالحة متأخّرة ومذنبة نحو العدم، (نحو عدم الموسيقى الذي هو الضوضاء المطلقة).

40

لنتذكّر: حين توقّفت إرِنا مع زوجها على ضفّة النهر الذي يعبر مدينة ريفية فرنسية، رأت على الضفّة الأخرى بعض الأشجار الساقطة، وانهالت فوقها في تلك اللحظة ضربة موسيقى غير متوقّعة مصدرها مكبّر صوت. بعد أشهر وجدت نفسها في البيت

مع زوجها المُحتَضَر. من المسكن المجاور دوّت موسيقى. قرعت الباب مرّتين ورجت الجيران أن يطفئوا الجهاز وعبثاً ما حاولته في المرّتين. أخيراً عوت: «أطفئوا هذا الرعب! زوجي يموت! هل تسمعونني؟ إنّه يموت! يموت!».

استمعت خلال سنواتها الأولى في فرنسا إلى المذياع كثيراً، كان يُعوِّدها على اللغة والحياة الفرنسيتين، لكنّها بعد موت مارتين ما عادت تحبّ الموسيقى أو تجد أيّ متعة فيها، ما عادت الأخبار تُقدّم بالطريقة ذاتها، بشكلٍ متواصِل، بل ببرهاتٍ من ثلاث، ثمانية، خمس عشرة ثانية من الموسيقى، هذه الفواصل الموسيقية القصيرة راحت من سنة إلى أخرى تزداد زيادة غادرة. وهكذا راحت تعرف حميمياً ما كان يُسمّيه شونبِرغ بـ «الموسيقى التي صارت ضوضاء».

إنّها مستلقية على السرير بجانب غوستاف، مضطربة جدّاً أمام فكرةِ موعدها، وتخاف ألاّ تستطيع النوم. تناولت قرص منوِّم فهدأت، وحين استيقظت عند منتصف الليل عادت وتناولت قرصين آخرين؛ ثم أشعلت مذياعاً صغيراً ألصقته بأذنها بقنوطٍ وعصبيّة. ولكي تستعيد الحلم تريد أن تسمع صوتاً إنسانيّاً، كلمة تسيطر على تفكيرها، تحملها إلى مكانٍ آخر، لكن ما من شيء يخرج من كلّ جهة إلا الموسيقى، أجزاء من مقطوعات الروك والجاز والأوبِرا، وهو عالم لا تستطيع أن تتوجّه فيه إلى أحد، لأنّ الجميع يغنون ويعوون، إنّه عالم لا أحد يتوجّه فيه إليها لأنّ الجميع ينطّون ويرقصون.

على هذا الجانب ماء الموسيقى القذر وعلى ذاك الشخير. وإرِنا المحاصرة تشعر بالحاجة إلى الفضاء الحرّ لها، فضاء للتنفس، لكنّها تصطدم بالجسد الشاحب والمتخشّب الذي تركه القَدَر في طريقها مثل كيس من الوحل. فتهيمن عليها موجه كراهية

جديدة تجاه غوستاف، ليس لأنّ جسده يُهمِل جسدَها (آه، لا! لن تستطيع بعد الآن أن تُمارِس الحبّ معه!)، بل لأنّ شخيره يمنعها من النوم ويعرّضها لخطر أن يخرِّب عليها لقاءَ حياتِها، اللقاء الذي سيحلّ قريباً جدّاً، خلال ثماني ساعات، لأنّ الصباح يقترِبُ والنعاس لا يأتي وتعلم أنّها ستكون متعبة، عصبيّة، بشعة الوجه، مُتَهَرّمة.

أخيراً تفعل شدّةُ الكراهية فعلها مثل مُخدِّرٍ فتنام. حين تستيقظ والمذياع الصغير بملاصقة إذنها يبثّ الموسيقى التي صارت ضوضاء، يؤلمها رأسُها وتشعر بالإنهاك. كان بودّها لو تبقى في السرير، لكنّ ميلادا أعلنت عن زيارتها لها في العاشرة. لماذا تأتي في هذا اليوم بالضبط؟ فإرِنا لا ترغب بلقاء أحد!

41

لم يكن يظهر من المنزل المبنيّ على منحدر إلاّ دورٌ واحدٌ. حين فُتحَ الباب أذعن جوزيف لحركات تودّدٍ من كلبٍ الباستور الألماني الضخم. لم يستطيع أن يرى «ن» إلا بعد برهةٍ طويلة، حين هدّأ الكلبَ ضاحكاً وقادَ جوزيف عبر ممر ثمّ عبر درج طويل باتجاه مسكن من غرفتين، على مستوى الحديقة، حيث كان يعيش مع زوجته، التي كانت هناك تمدّ له يدها بودٍّ.

«في الأعلى»، قال «ن» وهو يشير إلى السقف،« الشقق أوسع. هناك يعيش ابني وابنتي مع أسرتيهما. البيت لابني. إنّه محامٍ. من المؤسِف أنّه غير موجود اليوم، اسمع» قال خافِضاً صوته، «وهو، إذا كنت تُفكّر بالاستقرار في هذا البلد، سيساعدك، سيسهّل عليك كلّ شيء».

ذكّرت هذه الكلماتُ جوزيف باليوم الذي قدّم له «ن» صداقته

ومساعدته قبل حوالى أربعين سنة بهذا الصوت المنخفض ذاته، الدالّ على الثقة.

«حدَّثتهم عنك...»، قال «ن» وصاح من على الدرج بعدّة أسماء تنتمي دون شكّ إلى ذرّيّته. لم يكن عند جوزيف، حين رأى كلّ أولئك الأحفاد وأولادهم، أدنى فكرة عمّن يكونون. في جميع الأحوال كانوا جميعهم وسيمين وأنيقين (لم يستطع جوزيف أن يتوقّف عن النظر إلى فتاةٍ شقراء، صديقة الحفيد، وهي ألمانية لا تتكلّم كلمة تشيكية واحدة) وجميعهم بمن فيهم الفتيات كانوا أطول من «ن» الذي كان يبدو في حضورهم مثل أرنب ضائع بين نباتات تنمو بسرعة حوله وتنتهي بتغطيته.

ومثل عارضي الأزياء على ممر العرض ابتسموا دون أن يقولوا كلمة واحدة حتى اللحظة التي رجاهم فيها «ن» أن يتركوه لوحده مع صديقه. فبقيت زوجته في البيت وخرجا هما إلى الحديقة.

تبعهما الكلبُ فعلّق «ن»: «لم أره مثاراً من زيارةٍ بهذه الطريقة قط. كما لو أنّه عرف مهنتك». بعدها أرى «ن» جوزيفَ بعضَ الأشجار المثمرة ووضح له دوره في ترتيب سجاد العشب المفصول بعضه عن بعض بدروب، بحيث أن الحديث ابتعد برهة طويلة عن الموضوعات التي كان جوزيف قد ارتأى التطرق إليها. أخيراً تمكّن من قطع الحديث النباتي على صديقه وسأله كيف عاش خلال السنين العشرين التي لم يتقابلا خلالها.

«لا تُكلّمني!» قال «ن» وأشار كجواب على النظرة المتسائلة لجوزيف بسبّابته إلى القلب. لم يفهم جوزيف معنى تلك الحركة: هل أثّرت عليه الأحداث بعمق؟ «حتى أعمق أعماق قلبه»؟ هل عاش مأساة غرامية؟ أم أنّه أُصيب بنوبة قلبية؟ «سأحكي لك ذات يوم» قال لاغياً كلّ نقاش.

لم يكن الحديثُ سهلاً، ففي كلِّ مرّة يتوقّف فيها جوزيف ليصوغ سؤالاً بشكلٍ أفضل، كان الكلبُ يشعر بأنّه مُخوَّل بالنطّ عليه ووضع ساقيه على كرشه. « أتذكّر أنّك دائماً كنت تقول»، علّق «ن» «إنّ الذين يريدون أن يُصبِحوا أطباء يريدون ذلك لأنّ الأمراضَ تهمّهم. والذين يعملون بيطريين يعملون ذلك حبّاً بالحيوانات.»

«أنا كنتُ أقولُ هذا؟»، استغرب جوزيف فيتذكّرُ عندئذٍ أنّه وضّح لزوجة أخيه منذ يومين أنّه اختار هذه المهنة ليتمرّد على أسرته. إذن هل تصرّف حبّاً وليس تمرّداً؟ في سحابة مبهمةٍ واحدة رأى جميع الحيوانات المريضة التي عرفها، ثمّ رأى عيادته البيطرية في القسم الخلفي من بيته القرميديّ، حيث يفتح في اليوم التالي (نعم، تماماً بعد أربع وعشرين ساعة!) البابَ كي يُدخل المريض الأوّل في ذلك اليوم. فسطع وجهه بابتسامة عريضة.

اضطُرَّ لأن يُجهِد نفسه كي يعودَ إلى الحديث الذي لم يكد يبدأ: سأل «ن» عمّا إذا قاموا ضدّه نظراً لماضيه السياسيّ؛ وأجاب «ن» بالنفي: الناس كانوا يعرفون، حسب قوله، أنّه ساعد من لُوحقوا من النظام. «لا أشكُّ بذلك!» قال جوزيف (وكان فعلاً لا يشكّ بذلك)، لكنّه أصرَّ: كيف يحكم «ن» نفسَهُ على حياته الماضية؟ كخطإٍ أم كهزيمة؟ هزّ «ن» رأسه قائلاً لا هذا ولا ذاك. أخيراً سأله ما رأيه بالاستعادة السريعة والفجّة للرأسمالية. فهزّ «ن» كتفيه وأجاب بأنّه نظراً للظروف لم يكن هناك من حلٍّ آخر.

لا، لم يتمكّن الحوار من الإقلاع. فكّر جوزيف في البداية أنّ «ن» وجدَ أسئلتَهُ طائشة، لكنّه صحّح: هي في غير مكانها أكثر مما هي طائشة. لو تحقّق حلم زوجة أخيه بالانتقام ولو اتُّهِم «ن» وسيق أمام محكمة لعاد عندئذٍ إلى ماضيه الشيوعي، يوضّحه ويُدافِع عنه. لكن هذا الماضي الذي لم يُذكر اليوم صار بعيداً. وما عاد يسكنه.

تذكّر جوزيف فكرة قديمةً عنده، أخذها وقتذاك على أنّها شتيمة: لا علاقة للانتساب إلى الشيوعية بماركس ونظرياته؛ والمرحلة لم تفعل شيئاً آخر غير أنّها لبّت أكثر الحاجات النفسية تنوّعاً: الحاجة للظهور بعدم الرضى، أو الحاجة للطاعة، أو الحاجة للظهور بعدم الفائدة، أو الحاجة للتقدّم مع الشبان نحو المستقبل، أو الحاجة لتشكيل عائلة كبيرة.

راحَ الكلبُ الرائق المزاج ينبحُ وقال جوزيف لنفسه: يُغادِر الناس الشيوعية اليوم ليس لأنّ تفكيرهم قد تبدّل أو دخل في صراع، بل لأنّ الشيوعية ما عادت تُقدِّم للمرءِ الفرصةَ ليظهر بمظهر عدم الرضى، أو الطاعة، أو لمعاقبة الأشرار، أو للظهور بعدم الفائدة، أو للتقدم بالشبان نحو المستقبل أو لتشكيل عائلة كبيرة. ما عادت القناعة الشيوعية تستجيب لهذه الحاجة. فقد انتقلت لتصبح من عدم الفائدة بحيث أنّ الجميع يُغادرونها بسهولة، حتى دون أن ينتبهوا.

المسألة أنّ الغاية الأولى من زيارته بقيت آنياً بلا تأثير: وهي أن يُعْلِمَ «ن» أنّه هو جوزيف وأمام محكمة متخيّلة سيدافع عنه. ولكي يُحقّق ذلك أراد قبل كلّ شيء أن يبرهن له أن العالم الذي يقوم هناك بعد الشيوعية لا يُثير حماسه على الإطلاق، ثم واستحضر الصورة الإعلانية في ساحة مدينته الأصلية، حيث هناك اختصار غير مفهوم يعرض خدماته على التشيكيين مبيّناً لهم يداً بيضاء ويداً سوداء متشابكتين: «قلْ لي، هل ما زال هذا البلدُ بلدنا؟».

انتظرَ أن يسمع منه تعليقاً ما لاذعَ السخرية حول الرأسمالية العالمية التي تُوَحِّد كلّ شيء على الكوكب، لكنّ «ن» كان يلزم الصمت.

ـ تفكّكت الإمبراطورية السوفييتية لأنّه لم يعد باستطاعتها أن

تتحكّم بالأمم التي تريد أن تكون سيّدة نفسها. لكنّ هذه الأمم الآن أقلّ سيادة من أيّ وقت مضى. لا يستطيعون أن يختاروا اقتصادَهم ولا سياستهم الخارجيّة ولا حتى شعاراتهم الدعائية.

ـ السيادة الوطنية صارت وهماً منذ زمن بعيد ـ قال «ن».

ـ لكنّ إذا كان هناك بلد غير مستقل بل وحتى لا يريد أن يكون مستقلاً، هل سيكون هناك بعد من هو على استعدادٍ للموت من أجله؟

ـ لا أريدُ لأبنائي أن يكونوا مستعدّين للموت.

ـ سأقول ذلك بطريقة أخرى: هل ما زال هناك من يُحبّ هذا البلد؟

قصّر «ن» الخطو:

ـ يا جوزيف ـ قال متأثّراً ـ كيف استطعت أن تُهاجِر؟ أنت وطنيّ تماماً! ـ ثمّ أضاف بجدّية كبيرة جدّاً ـ ما عاد هذا الموت من أجل بلدك موجوداً. يمكن أن يكون الزمن قد توقّف بالنسبة إليك خلال غيابك. لكنّهم، هم ما عادوا يُفكّرون مثلك.

ـ من هم؟

قام «ن» بحركة من رأسه نحو الأدوار العليا من بيته، كما لو أنّه يريد أن يُشير إلى ذرّيته. «هم الآن في مكان آخر.»

42

لم يتحرّك الصديقان من مكانهما خلال الجمل الأخيرة من حديثهما؛ فاستغلّ الكلبُ الحالة: نهض ووضع قائمتيه على جوزيف، الذي كان يُدغدغه. فتأمّل «ن» برهةً لا بأس بها ثنائيَّ الرجلِ والكلب. وقال كما لو أنّه لم ينتبه حتى تلك اللحظة إلى أنّهما

لم يريا بعضهما بعضاً منذ عشرين سنة: «آه، ما أسعدني لأنك جئتَ!». ربت على كتفه ودعاه للجلوس تحت شجرة برتقال. فجأة فهم جوزيف: إن الحديث الجديّ، المُهم، الذي جاء لأجله لن يتمّ. ولمزيد من الدهشة شعر بالراحة، نعم، شعر بما يشبه الانعتاق! فهو بعد كلّ شيء لم يأتِ ليُخضِع صديقَه لاستجواب.

حلّق حديثهما حرّاً، كان دردشة لطيفة بين صديقين قديمين، وكأنّه كسر قفلاً: ذكريات متفرّقة، أخبار عن أصدقاء مُشتَرَكين، تعليقات ظريفة، عبارات متناقضة، ونكات. كان كما لو أنّه ترك ريحاً ناعمةً، دافئةً وجبّارةً، تهزهزه. شعر جوزيف بفرحِ بالكلامِ لايُقاوَم، فرح بالفعل لم يتوقّعه! عشرون عاماً لم يكد يتكلّم فيهاَ بالتشيكية. والحديث مع زوجته كان سهلاً لأنّ الدانماركية قد انتقلت لتُصبح لغة الحميمية الصريحة بينهما. لكنّه مع الآخرين كان ما يزال واعياً أنّ عليه أن يختارَ دائماً الكلماتِ، يركّبَ الجملَ، ويُراقبَ النبرة. كان يبدو له أنَّ الدانماركيين يجرون خفافاً حين يتكلّمون بينما هو يخبّ خلفهم، مثقلاً بعشرين كليو زيادة في الوزن. أما الآن فالكلمات تخرج من فمه من تلقاء ذاتها، دون الحاجة للبحث عنها أو مراقبتها. ما عادت التشيكية الآن تلك اللغة المجهولة ذات الجرس الأنفيّ التي فاجأته في مسقط رأسه. أخيراً تعرّف عليها، تذوّقها. شعر بالراحة معها، كان رشيقاً كما لو بعد مرحلةِ تنحيف. راح يتكلّم كما لو أنّه يطير وكان لأوّل مرّة خلال إقامته سعيداً في بلده، وشعر أنه له.

صديقه «ن» الموخوز بالسعادة التي كانت تشعّ منه راح يُظهر ارتياحاً هو في كلّ مرّة أكبر. وبابتسامة متواطئة استحضر عشيقته السرّية آنذاك وشكره لأنّه أفاده بالتستر على الأمر أمام زوجته. جوزيف لم يتذكّر وكان واثقاً من أنّ «ن» خلط بينه وبين آخر. لكنّ قصّة التستّر التي رواها له كانت من الجمال واللطافة بحيث انتهى

إلى قبول أنّه لعب فيها دور المتستّرِ المهمّ. كان «ن» يلقي برأسه إلى الخلف فتضيء الشمسُ وجهَهُ عبر الغصون بابتسامةٍ سعيدة.

في هذه الحالة من الراحة وجدتهما زوجةُ «ن»:

ـ ستتناول طعام الغداء معنا أليس كذلك؟

نظر إلى ساعته ونهض.

ـ عندي موعِد خلال نصف ساعة.

ـ إذن تعالَ هذه الليلة! سنتعشّى سويّةً ـ توسّله «ن» بمودّة.

ـ هذه الليلة سأكون في بيتي.

ـ عندما تقول في بيتي، تعني...

ـ في الدانمارك.

ـ يبدو غريباً جدّاً سماعك تقول هذا. يعني أن منزلك لم يعد هنا؟ ـ سألت زوجة «ن».

ـ لا. هناك.

سادت لحظة صمت طويلة واستعدّ جوزيف كي يُغربَل بالأسئلة: إذا كانت الدانمارك هي منزلك فعلاً، فما الحياة التي تحياها هناك؟ مع من؟ احكِ! كيف هو بيتك؟ كيف هي زوجتُك؟ هل أنتَ سعيد؟ احكِ احكِ!

لكن لا «ن» ولا زوجته صاغا أيّ سؤال. وخلال ثانية ظهرَ أمام جوزيف سياج حديدي وشجرة تنّوب.

ـ يجب أن أذهب ـ قال، واتجهوا جميعاً نحو الدرج.

كانوا يصعدون فشعر جوزيف وسطَ الصمت بغياب زوجته؛ لم يكن هنا أيّ أثر منها. ثلاثة أيّام في هذا البلد وما من أحدٍ قال كلمة واحدة عنها. فأدرك أنه لو بقيَ لفقدها. لو بقي لاختفت.

توقّفوا على الرصيف، ودّع بعضهم بعضاً مرّة أخرى والكلب أسند قائمتيه على كرش جوزيف.

بعدها تابعاه بنظراتهما بينما راح يبتعد إلى أن غاب عن النظر.

43

حين رأت ميلادا إرِنا بعد كلّ هذه السنوات بين نساءٍ أخريات في قاعة المطعم، شعرت تجاهها بودٍّ لا شكّ فيه: والتفصيل الذي لفت انتباهها آنذاك بشكلٍ خاص: أن إرِنا كانت قد ألقت قصيدة لجان سكاسِل. في بوهيميا من السهلِ العثور على شاعرٍ والإلمامِ به. كانت ميلادا قد عرفته، رجلاً ربعاً، له وجه قاسٍ كأنّه نُحت منَ حجر وأعجِبت به بسذاجة الشباب آنذاك. نشر مجدّداً أعماله الكاملة في مجلّد وأخذته ميلادا هديّةً إلى صديقتها.

تتصفّح إرِنا الكتاب.

ـ أما زال الشعر يُقرَأ؟

ـ ليس كثيراً ـ تقولُ ميلادا وتذكر بعض الأبيات عن ظهر قلب ـ «أحيانا وفي الظهيرة ومع مياه النهر نرى الليل يمرّ...» وكذلك: «بحيرات والماء خلف الظهر». أو يقول سكاسِل هناك مساءات يكون فيها الهواء من الهشاشة والرقّة بحيث: «تستطيع أن تمشي حافياً على كِسَرِ القناني».

وبينما إرِنا تصغي إليها تذكّرت تلك الظهورات المفاجئة التي كانت تمرّ برأسها في سنوات الهجرة الأولى. إنّها مقاطع من هذه القصيدة ذاتها. مقاطع من هذا المشهد ذاته.

ـ أو حتى هذه الصورة: «على جواد، الموتُ وطاووس».

نطقت ميلادا هذه الكلمات بصوتٍ مرتعِشٍ قليلاً: إذ دائماً كانت

تبعثُ عندها رؤيا: هيكلٌ عظمي يمضي ومِنجل في يده على جواد عبر الحقل، وخلفه على الكفل طاووس فرد ذيله الزاهي والمُغري، مثل الزهوّ الأبدي.

تنظرُ إرِنا ممتنّةً إلى ميلادا، الصديقة الوحيدة التي عادت لتلقاها في هذا البلد، تنظر إلى وجهها الدائريّ الجميل ، الذي يزيد شعرها من استدارته؛ وبما أنّها صامتة ومتفكّرة، اختفت التجاعيد في ثبات جلدها وبدت امرأة ما تزال مكتنزةً. فترغب إرِنا أن تستمرّ هكذا، أن تتوقّف عن إلقاء الأشعار، أن تبقى خرساء زمناً طويلاً، بلا حراك وجميلة.

ـ دائماً سرّحت شعرك التسريحة ذاتها، أليس كذلك؟ لم أرك قط بتسريحة أخرى.

تقول ميلادا وكأنها تريد أن تتفادى هذا الموضوع:

ـ إذن هل ستنتهي بأن تجزمي أمركِ ذات يوم؟

ـ تعرفين أنّ غوستاف لديه مكاتب في براغ وباريس!

ـ لكنّه، إن لم أخطئ، يريد أن يستقرّ نهائياً في براغ.

ـ انظري، أنا يناسبني هذا الرواح والغدوّ بين براغ وباريس. لديّ عملي هنا وهناك، غوستاف هو رئيسي الوحيد، ونحن نسويّ أمورنا ونرتجل الأشياء.

ـ ما الذي يبقيك في باريس؟ ابنتاك؟

ـ لا، لا أريد أن أكون عالة عليهما.

ـ هل من أحد لك هناك؟

ـ لا، لا أحد ـ تتابع بعدها ـ : لدي استقلاليتي. ـ وأضافت ببطء ـ : منذ البداية عنديّ انطباع بأنّ حياتي يقودها آخرون، باستثناء بعض السنوات بعد موت مارتين. كانت أقسى سنوات عمري حين كنت وحيدة مع ابنتيّ، وعليّ أن أتدبّر أمري. كنت في

فاقة. لن تُصدّقيني، لكنني وأنا أنظر إليها اليوم أتذكّرها كأسعد سنوات عمري.

هي نفسها فوجئت حين وصفت السنوات التي تلت موت زوجها بالأسعد، فصحّحت:

- أعني أنّها المرّة الأولى التي شعرت فيها بأنّني سيدة حياتي.

سكتت. لم تقطع ميلادا الصمت فتابعت إرِنا:

- تزوّجتُ وأنا شابّة جدّاً كي أهرب من أمّي. لهذا السبب بالضبط كان قراراً إجبارياً وفي الحقيقة لم يكن حرّاً. وللطامّة الكبرى أنني لرغبتي بالهرب من أميّ تزوّجت من صديق قديم لها. لأنّني عمليّاً لم أعرف غير الناس الذين كانوا يُحيطون بها. وهكذا بقيت حتى وأنا متزوّجة تحت مراقبتها.

- كم كان عمرك؟

- لم أكد أبلغ العشرين، ومنذ ذلك الوقت تقرّر كلّ شيء. ارتكبت حينذاك خطأً، خطأً يصعب تعريفه، لا يُحَس لكنّه كان نقطة انطلاق كامل حياتي التي لم أستطِع إصلاحها قط.

- خطأ لا يمكن إصلاحه في زمن الجهل.

- نعم.

- في هذا العمر يتزوّج الناس، وينجبون الولد الأوّل ويختارون مهنتهم. وذات يوم يعرفون ويفهمون أشياء كثيرة، لكنّ يكون الوقت قد تأخّر كثيراً لأنّ حياتهم تكون قد اتخذت شكلاً ما، في مرحلة لا يعرفون فيها شيئاً على الإطلاق.

- نعم، نعم - توافق إرِنا - يحدث الشيء ذاته في موضوع الهجرة! فقد كان أيضاً نتيجة قراراتٍ سابقة. لقد هاجرتُ لأنّ الشرطة السرّية حوّلت حياةً مارتين إلى جحيم. هو من كان لا

يستطيعُ العيشَ هنا، بينما أنا نعم. كنتُ متضامنة مع زوجي ولا أندم، لكن أمر الهجرة لم يكن شأني أو قراري، بل كان عملاً حرّاً وقدراً خاصّاً. أمّي دفعتني باتجاه مارتين ومارتين حملني إلى الخارج.

- نعم، أتذكّر، فقد قُرِّر ذلك من دونك.

- حتى أمّي لم تبدِ أيّ اعتراض.

- على العكس كان يناسبها.

- إلامَ تشيرين؟ إلى البيت؟

- كلَ شيء ينتهي بأن يصبحَ مسألة مُلكية.

- أراك مرّة أخرى ماركسية - قالت إرِنا بابتسامة صغيرة.

- هل لاحظت كيف استعادت البرجوازية، وبعد أربعين سنة من الشيوعية، ذاتَها في أيّامٍ قليلة؟ لقد استمرّت حيّةً بألف طريقة، بعضهم في السجن، وبعضهم اقتُلِعَ من مركز عمله، وآخرون، على العكس، رتّبوا كلّ شيء بشكلٍ عجيب، حصّلوا دراسات لامعة، صاروا سفراء ومدرسين. والآن اجتمع أولادهم وأحفادهم مرّة أخرى في نوع من الأخوّة السرّية، يُمسكون بالبنوك، بالصحافة، بالبرلمان وبالحكومة.

- أرى أنّكِ فعلاً ما زلتِ شيوعية.

- هذه الكلمة لم يعد لها معنى. لكنّني لم أتخلّ عن كوني ابنة أسرة فقيرة.

تسكتُ فتمرّ في رأسها صور: مراهِقة من أسرةٍ فقيرة، تعشق فتىً من أسرةٍ غنيّة، والفتاة التي تبحثُ في الشيوعيّة عن معنىً

لحياتِها، تتحول بعد عام 1968 إلى امرأة تتزوّج من منشقّ وتكتشف معه فجأة عالماً أكثر رحابة . فهي لا تتعرّفُ فقط على شيوعيين تمرّدوا على الحزب، بل وعلى رهبان وسجناء سياسيين قدماء وبرجوازيين كبار فقدوا طبقتهم أيضاً. ثمّ وفي العام 1989 تعودُ، كما لو أنّها خارجة من حلمٍ، لتصبح ما كانت عليه: ابنة أسرةٍ فقيرةٍ ناجحة.

ـ لا تشعري بالإهانة من سؤالي ـ قالت إرِنا ـ فقد سبق وقلته لي، لكنّني لا أتذكّر: أين وُلِدتِ؟

قالت ميلادا اسم مدينة صغيرة.

ـ اليوم سأتناول الغداء مع شخصٍ من هناك.

ـ ما اسمه؟

حين سمعت ميلادا اسمه ابتسمت:

ـ أرى أنّه يأتيني مرّةً أخرى بسوء الحظّ. كنتُ أريد دعوتك للغداء. شيء مؤسف.

44

رغم أنَّه وصل إلى الموعدِ بدقّة إلاّ أنّها كانت تنتظره في بهو الفندق. فيقودها إلى المطعم ويدعوها للجلوس أمامه على طاولة كان قد حجزها.

بعد عدّة جملٍ تقاطِعه:

ـ إذن كيف كان الوضع معك هنا؟ هل ستبقى؟

ـ لا ـ قال ـ وسألها بدوره ـ : وأنتِ؟ ما الذي يبقيكِ هنا؟

ـ لا شيء.

الجواب قطعيّ ويشبه جوابه بحيث أنّ الإثنين راحا يضحكان. وهكذا خُتِمَ اتفاقهما وراحا يتكلّمان، بحماس، وبفرح.

يوصي على الطعام وحين يأتيه النادِل بلائحة النبيذ تنتزعها إرِنا منه:

ـ الطعام عليك والنبيذ عليّ! ـ مرّت في اللائحة على بعض النبيذ الفرنسي واختارت واحداً ـ : النبيذ بالنسبة إليّ مسألة شرفٍ. أبناء بلدنا لا يعرفون شيئاً عن النبيذ وأنت في اسكندينافياكَ البربرية لابدّ أنّك تعرف أقلّ منهم.

ثم تحكي له كيف أنّ صديقاتها رفضن تناول البوردو الذي أحضرته لهنّ.

ـ تصوّر نبيذ موسم 1985! وهنّ بوعي شربن بيرة كي يلقنّني درساً في الوطنية. ثم أشفقن عليّ حين سكرن من البيرة فخطر لهنّ النبيذ!.

تتابِعُ إرِنا حكايتها، إنّها لطيفة، فيضحكان.

ـ الأسوأ أنّهنّ كنَّ يُكلِّمنني عن أشياء وأشخاص لا أعرف عنهم شيئاً. لم يبغين أن يفهمن أنّ عالمهنّ قد ذهب من رأسي بعدَ كلّ هذا الوقت. فكّرن أنّني بنسياني أريد أن أصنع من نفسي شخصية مهمّة. أن أبرز. كان حديثاً غريباً جدّاً: كنت قد نسيتُ من يكنَّ ولم يُبدين أيّ اهتمامٍ بمعرفةِ أيّ شيءٍ عنّي. هل يمكن أن تُصدّق أنّه ما من واحدة منهنّ سألتني سؤالاً واحداً عن حياتي هناك؟ ولا سؤالاً واحداً! أبداً! لدي انطباع هنا بأنّهم يريدون أن يبترن عشرين عاماً من حياتي. حقيقةً لدي انطباع بأنّ الأمر يتعلّق بعملية بتر. أشعر بنفسي مقتضبة، متقلّصة مثل قزمة.

تبدأ تعجِبه ويُعجبه ما تحكيه أيضاً. يفهمها ويوافق على كلّ ما تقوله.

ـ وفي فرنسا ـ يقترح هو ـ هل تسألك صديقاتك؟

كادت تقول نعم، لكنّها تتروّى، تريد أن تكون دقيقةً فتتكلّم ببطء:

ـ طبعاً لا! لكنّ الناس هناك يجتمعون كثيراً ويُفترض أنّهم جميعاً يعرفون بعضهم بعضاً. لا يسألون، لكنّهم لا يشعرون بالخيبة نتيجة ذلك. لا يهتم بعضهم ببعض، لكنّهم يفعلون ذلك بطريقة بريئة جدّاً رغماً عنهم.

ـ صحيح. فقط حين تعودين إلى بلدك بعد غيابٍ طويل تنتبهين إلى شيء في غاية الوضوح: إن الأشخاص لا يهتم بعضهم ببعض وهذا بالنسبة لهم شيء عاديّ.

ـ نعم، عاديّ.

ـ لكنّني قصدتُ شيئاً آخر. لم أقصدك أنت، ولا حياتك ولا شخصك. قصدتُ تجربتك، ما رأيتِه، ما عرفته. وهو ما لا يمكن لأصدقائك الفرنسيين أن يكون عندهم أدنى فكرة عنه.

ـ هل تدري أنّ التجربةَ سيّان بالنسبة إلى الفرنسيين؟ الآراء هناك تغلب على التجربة. حين وصلنا كان سيّان عندهم أن يعرفوا أو لا يعرفوا شيئاً عنّا. كانوا يعرفون أنّ الستالينية شرّ والهجرة مأساة. لم يكن يهمّهم ماذا نفكّر؛ ما كان يهمّهم هو أنّنا البرهان الحيّ على أنهم يُفكّرون. ولذلك كانوا يجتهدون معنا ويشعرون بالفخار لأنّهم يفعلون ذلك. وحين تفكّكت الشيوعية نظروا إليّ نظرة استقصاء. عندئذٍ خَرب شيء ما. لم أتصرّف كما كانوا ينتظرون منّي ـ ترشف إرِنا رشفة نبيذ وتتابع ـ : الحقيقة أنّهم ساعدوني كثيراً. رأوا فيَّ معاناة المُهاجِرة، ثم جاءت ساعة أن أؤكّد هذه المعاناة بوساطة الفرح بالعودة، لكنّهم لم يحصلوا على

هذا التأكيد. شعروا بأنّني ضحكت عليهم. وأنا أيضاً، لأنّني اعتقدت خلال ذلك أنّهم يُحبّونني لذاتي وليس لمعاناتي. ـ تُحدّثه أيضا عن سيلفي ـ شكّلتُ بالنسبة إليها خيبة أمل لأنّني لم أُهرع منذ اليوم الأوّل إلى المتاريس في براغ.

ـ المتاريس؟

ـ طبعاً لم تكن موجودة، لكنّ سيلفي كانت تتخيّلها. لم أستطِع السفر إلى براغ إلاّ بعد أشهر، بعد أن حدث كلّ شيء، وقد بقيتُ بعض الوقت. حين عدتُ إلى باريس شعرتُ بالحاجة المُلحّة للتكلّم معها. هل تعلم؟ كنتُ أحبّها حقيقةً وأريد أن أحكي لها كلَّ شيء، أتحدث معها عن كل شيء، عن صدمة العودة إلى بلدكِ بعد غياب عشرين سنة، لكنّها ما عاد لديها رغبة كبيرة لرؤيتي.

ـ وهل حدث شيء بينكما؟

ـ لا، طبعاً لا. في باريس لا تحدث الأشياء بهذه الطريقة. فقط هو أنّني لم أعد بالنسبة إليها مُهاجِرة. لقد وجدتُ نفسي خارج الراهن. وكفّت قليلاً فقليلاً وبنعومة وابتسامة عن البحث عنّي.

ـ إذن مع من تستطيعين أن تتحدّثي بهذه الأشياء؟ مع من تتفاهمين؟

ـ مع لا أحد. ـ ثمّ قالت ـ : الآن معك.

45

سكتا. وكرّرت هي بنبرة تكاد تكون وقورة: «معك». بل وأضافت: «ليس هنا. في فرنسا. أو بالأحرى في مكانٍ آخر. في أيّ مكان».

بهذه الكلمات عرضت عليه مستقبلها. ورغم أنّ جوزيف لا يهتمّ بالمستقبل إلا أنّه يشعر بنفسه سعيداً مع هذه المرأة، التي تشتهيه بشكل جليٍّ تماماً. كما لو أنّه عاد بالزمن إلى السنوات التي كان يذهب فيها إلى براغ ليغازل. كما لو أنّ تلك السنوات تدعوه كي يُجدِّد شبابه مع هذه المجهولة، فجأة تبدو له فكرة أن يقطع المساء، بسبب موعده مع ابنة زوجته، غير مقبولة.

ـ هل تعذرينني لحظة؟ عليّ أن أجري مكالمة ـ ينهض ويتجه إلى غرفة هاتف.

تنظر هي إليه، وقد تقوّس ظهره قليلاً، بينما هو يرفع السمّاعة، فتُقدِّر عمرَهُ عن بعد بدقّة أكبر. حين رأته في المطار بدا لها أكثر شباباً، والآن تأكّدت أنّه لا بدّ يكبرها بخمسة عشر أو عشرين عاماً؛ مثل مارتين، مثل غوستاف. لا يبدو لها هذا سيّئاً، بالعكس، يمنحها انطباعاً مريحاً بأنّ هذه المغامرة، مهما كانت جريئة ومُجازفة، من حقّها وهي أقلّ جنوناً مما تبدو: (أعلمكم: إنها تشعر بالراحة مثلها مثل غوستاف قبل سنوات حين علم بعمر مارتين).

ما أن سمعت ابنة زوجته باسمه حتى انقضّت عليه:

ـ تهتف لي كي تقول إنّك لن تأتي.

ـ أرى أنّك فهمت الأمر. بعد كلّ هذه السنوات لدي أشياء كثيرة عليّ أن اقوم بها. ليس عندي دقيقة فراغٍ واحدة. اعذريني.

ـ متى ستذهب؟

كاد أن يقول «هذه الليلة»، لكن خطر له أنّ من الممكن أن تهبط عليه في المطار. فيكذب:

ـ غداً صباحاً.

ـ وليس عندك وقت لتراني؟ ولا حتى بين موعدين؟ ولا حتى هذه الليلة؟ سأكون رهن إرادتك متى تريد!

ـ لا.

ـ لا تنسَ أنّني، رغم كلّ شيء، ابنة زوجتك!

التشديد الذي كادت تصرخ به حين قالت الجملة الأخيرة يُذكّره بأكثر ما كان يرعبه في أزمنة أخرى في هذا البلد. فيغضب ويبحث عن جملة جارحة.

لكنها أسرع منه:

ـ تسكت، أليس كذلك؟ لا تعرف ماذا تقول! لكي تعلم، لقد نصحتني والدتي بألاّ أهتف لك. فقد وضحّت لي كم أنت أنانيّ! بائس وأناني قذر.

ثم تقفل السماعة.

يتجه إلى الطاولة وكأنّه ملطّخ بالقاذورات. فجأة ودون منطق تعبر روحَه جملة: «تعرَّفتُ على نساءٍ كثيراتٍ في هذا البلد، لكني لم أتعرف على واحدة كأخت». فيُدهش من هذه الجملة وكلمة «أخت». يسير ببطء أكبر كي يستنشق هذه الكلمة الوديعة جدّاً: أخت. وبالفعل لم يعثر في هذا البلد على أخت قط.

ـ هل من شيءٍ مزعِج؟

ـ لا شيء خطير. ـ يُجيب بينما يجلس ـ لكنّه مزعج نعم.

يسكت.

هي أيضاً تسكت. إن الحبوب المنومة لليلة أرقِها تَظهر في التعب. وفي محاولة لتضليله تصبّ بقية النبيذ وتشرب، ثمّ تنزل يدها وتضعها على يده:

ـ لسنا مرتاحين هنا. أدعوك لتناول شيء.

يتوجّهانِ إلى البار حيت تدّوي موسيقى بأعلى صوت.

تترنّح عدّة خطوات إلى الخلف ثمّ تتحكّم بنفسها: إنّها بحاجة إلى الكحول. وعلى طاولة البار يشرب كلّ واحد كأس كونياك.

ينظر إليها:

ـ ماذا يجري؟

تقوم بحركة من رأسها.

ـ الموسيقى؟ حسناً، لنذهب إلى غرفتي.

46

أن تعرف من إرِنا بوجوده في براغ كان ذلك مُصادفة فريدة إلى حدّ كافٍ. لكنّ المصادفات في عمرٍ مُعينّ تفقد سحرها، لا تعود تُدهِشُ، وتصبح مبتذلة. إن الذكرى لا تغيرها إطلاقاً. تتذكّر بمزاج مرّ قليلاً فقط أنّه كان يُحبّ أن يُخيفها بتعليقاته حول العزلة، وأنّه بالفعل كان ينتهي إلى إدانتها بتناول الغداء وحيدة.

تعليقاته عن العزلة. ربّما ما زالت هذه الكلمةُ في ذاكرتها لأنّها كانت تبدو لها آنذاك غير مفهومة إطلاقاً: حين صارت يافعةً مع أخوين وأختين كانت ترعبها الحشود؛ لم تكن تملك غرفةً خاصّة بها للعمل، للقراءة، ولا تجِدُ زاوية لتعتزل فيها إلاّ بصعوبة. كان واضحاً أنّ اهتماماتهما لم تكن واحدة، لكنّها كانت تُدرك أن كلمة عزلة في فم صديقها تحرز معنى أكثر تجريداً ونبلاً. وهو أن: تعبر الحياة دون أن تلقى اهتمامَ أحد، أن تتكلّم دون أن يُصغي أحدٌ إليها، أن تُعاني، أن تستلهم عطفاً؛ وبالتالي أن تعيش كما عاشتْ عمليّاً منذ ذلك الوقت.

تركت السيّارة في حيّ قريب من بيتها وذهبت تبحث عن

مقهى. حين لا يكون عندها من تتناول الغداء معه لا تذهب أبداً إلى مطعم (تجلس فيه العزلةُ أمامها على كرسيّ فارغٍ لتراقبها) بل تُفضِّل أن تتناول سندويشة على طاولة المشرب. وحين تمرّ أمام واجهة تلتقي نظرتها بانعكاس. تتوقّف. تنظرُ إلى نفسها، هذه هي رذيلتها، ربّما الوحيدة. بالتظاهر بالنظر إلى ما هو معروض تراقب نفسها. أحدٌ ما قال لها ذات مرّة إنّها تُشبه عذراء سلافية: شعر داكن، عينان زرقاوان، وجه دائريّ. لكنها تعرفُ أنّها جميلة، تعرف ذلك منذ البداية وهذا مبعث سعادتها الوحيد.

تنتبه بعد ذلك إلى أنّ ما تراه ليس مجرّد وجهها المنعكس بشكل باهت، بل واجهة ملحمة بالذات: جانب من الصدر معلّق، أرجل مقطوعة، رأس خنزير ومخطم وديّ ومؤثِّر، هناك إلى الداخل من الحانوت، أجساد طيور منتوفة، سيقانها في الهواء، عاجزة، لأنّ إنساناً قد رتَّبها بهذه الطريقة. وفجأة تقع فريسة الرعب، يتكرنش وجهها، تنقبِض أظافرها وتجهد لإبعاد الكابوس.

لقد وجّهت إليها إرنا اليوم سؤالاً عادة ما يسألونه لها من حين لآخر: لماذا لم تبدّل تسريحتها. لا لم تُبدّلها، كما لن تبدّلها أبداً لأنّها جميلة ما دامت تُحافِظ على شعرها كما هو حول وجهها. وبما أنّها تعرف ثرثرة الحلاّقين الوقحة فقد اختارت حلاّقها في حيٍّ من أحياء الأطراف، حيث لن تذهب صديقة من صديقاتها أبداً لتصفف شعرها. كان عليها أن تحمي سرّ أذنها اليسرى بثمن من الانضباط الكبير ونظام كامل من الحذر. كيف توفق بين الرغبة بالرجال والرغبة بأن تبدو لهم جميلة؟ في البداية بحثت عن مخارج أخرى (رحلات يائسة إلى الخارج حيث لا أحد يعرفها وحيث ما من طيشٍ يمكن أن يغدر بها)، لكنها فيما بعد صارت جذريّة وضحّت بحياتها الإيروسية لصالح جمالها.

كانت واقفةً أمام طاولة المشرب تشرب بيرة ببطء وتأكل

سندويشة جبن. ليست مستعجلة، وليس عندها ما تفعله. وكما في مساءِ كلّ أحدٍ تقرأ وفي الليل تأكلُ شيئاً لوحدها.

47

تتأكّد إرِنا من أنّ النعاس لا يُهادنها، وعلى انفراد في الغرفة لعدّة لحظات تأخذ من البراد الصغير ثلاث زجاجات صغيرة من مشروبات مختلفة. فتحت واحدة وشربتها. وزلقت الاثنتين الأخريين في محفظتها الموجودة على الكومودينة. ترى كتاباً مكتوباً بالدانماركية: الأوديسة.

ـ أنا أيضاً كنتُ أفكِّر بِعوليس ـ تقول ما أن يعود جوزيف.

ـ هو كان بعيداً عن بلده، مثلك، عشرين عاماً.

ـ عشرون عاماً؟

ـ نعم، عشرون تماماً.

ـ هو على الأقل كان يشعر بنفسه سعيداً بالعودة.

ـ ليس أكيداً تماماً. لقد رأى كيف خانه أبناء وطنه فقتل كثيراً منهم. لا أظنّ أنّه كان محبوباً من ناسه.

ـ لكنّ بنِلوبّ كانت تُحبّه فعلاً.

ـ من يدري!

ـ ألست متأكّداً؟

ـ قرأت وأعدتُ قراءة المشهد الذي يتضمّنه. في البداية لا تعرفه، ثم وحين يتضح كلّ شيء للجميع وحين أُقصي الطامحون، وعوقب الخونة بقيت تفرض عليه براهين جديدة لتتأكّد من أنّه هو فعلاً. أو من يدري؟ كي تؤجّل اللحظة التي سيعودان ويلتقيان فيها في السرير.

ـ هذا مفهوم أليس كذلك؟ لا بدّ أنك مُعطَّل بعد عشرين عاماً. هل بقيت هي مخلصة له طوال هذا الزمن؟

ـ لا يمكنها ألاّ أن تكون مخلصة. فهي كانت مراقبة من قِبَل الجميع. عشرون عاماً من العفّة. وليلة حبّها لا بدّ كانت صعبة. أتصوّر أن عضو بنِلوبَ خلال هذه السنين العشرين قد ضاقَ، وانكمش.

ـ مثلي!

ـ ماذا تقولين!

ـ لا، لا تَخَفْ! ـ هتفت هي ضاحِكةً ـ. لا أقصد عضوي!

فجأة تُكرِّرُ عليه، بنبرة أخفض، وببطء، ثملةً من ذكر العضو المكشوف، هذه الكلمات الأخيرة مستبدلة إيّاها بأخرى أكثر فحشاً. ثمّ وبصوت أكثر انخفاضاً من سابقه تعود لتكرّرها بكلمات أكثر فجوراً.

كان شيئاً غير متوقّع على الإطلاق! شيئاً أكثر إذهالاً ! لأوّل مرّة خلال عشرين سنة، يعود هو ليسمع بالتشيكية هذه الفواحِش، وفجأة يُثار كما لم يُثَر منذ أن غادر البلد، لأنّ جميع هذه الكلمات، الفظّة، الوسخة، الفاجرة، لا تمارس سلطتها عليه إلاّ بلغته الأصلية (لغة إيثاكاه)، ذلك أنّه فقط من هناك ومن أعمق الجذور تتصاعد فيه الإثارة من جيلٍ إلى جيل. حتى تلك اللحظة لم يتبادلا القبل. والآن مثارين بفخامة استسلم الواحد منهما للآخر خلال ثوانٍ.

اتفاقهما تام، لأنّها هي أيضاً أُثيرت بهذه الكلمات التي لم تلفظها أو تسمعها خلال سنواتٍ طويلة. اتفاق تام في انفجار الفجور! آه، كم كانت حياتها فقيرة! كم من المفاسد أضاعت، كم من الخيانات الخائبة! كلّ هذا تريدُ أن تعيشه الآن بشراهة. تريدُ أن تعيش كلّ ما تصوّرته دون أن تكون قد عاشته قط، تلصّص،

استعراض ، الحضور الفاحِش للآخرين ، هول من الكلام؛ كل ما تستطيع الآن أن تحققّه ستطبّقه وما هو غير قابل للتحقيق تتصوّره معه بصوت مسموع.

اتفاقهما تام، لأنّ جوزيف يعرف في قرارة نفسه (وربّما يرغب به) أنّ هذا اللقاء الإيروسي هو الأخير بالنسبة إليه. هو أيضاً يمارِس الجنس كما لو أنه يريد أن يضغط كلّ شيء، يضغط مغامراته السابقة ومغامراته التي لن تأتي. بالنسبة له ولها هي جولة مستعجلة عبر الحياة الجنسية: العملية الجريئة التي يصل إليها عاشقان بعد عدّة لقاءات، وأحياناً بعد سنواتٍ فيمارسانها باستعجال، وكلّ يثير الآخر كما لو أنّه يريد أن يُكثّف في مساءٍ واحدٍ كلّ الذي فاته وسيفوته.

ثم يمكثان منقطعي النفس ومستلقيين على ظهرهما الواحد بجانب الآخر فتقول هي له: «منذ سنوات طويلة لم أمارِس الحبّ، حتى ولو لم تُصدِّق، منذ سنواتٍ لا أُمارس الحبّ!».

تؤثّر فيه هذه الصراحة باستغراب وعمقٍ، يُغمض عينيه. فتستغل المناسبة لتمدّ يدها إلى محفظتها وتُخرج إحدى الزجاجتين الصغيرتين، وتشرب بحذر.

يفتح عينيه:

ـ لا تشربي، لا تشربي كثيراً! ستسكرين!

ـ لا تهتمّ! ـ تُدافِع عن نفسها.

بشعورها بالتعب الذي لا تتوصّل إلى التغلّب عليه كانت مستعدّة لفعل أيّ شيء كي تُحافظ على جميع حواسّها يقظة. لذلك ورغم أنّه ينظر إليها، فإنّها تُفرِغ الزجاجة الثالثة، ثم كما لو كي توضّح، تُبرِّر لنفسها، تُكرِّر أنّها منذ زمن طويل لم تُمارس الحبّ،

وتقول ذلك هذه المرّة مستخدمة كلمات فاجرة من إيثاكاها، ومن جديد تُثير دارةُ الفجور جوزيف الذي يعود ليبدأ.

راح الكحول في رأس إرِنا يلعب دوراً مُضاعَفاً: يحرّر خيالها، يستنهض جرأتها، يوقظ ذاكرتها. فتمارسُ الحبّ بوحشية، بفجور، بينما ستارة النسيان تلفُّ شبقيّتها في ليلة تمحو كلّ شيء. مثل شاعر يكتب أعظم قصائده بحبر يتلاشى في الحال.

48

وضعت الأمّ أسطوانةً في الجهاز ولمست بعض الأزرار لاختيار مقطوعاتها المفضّلة ثم دخلت في حوض الحمّام؛ ثم وبعد أن تركت الباب مفتوحاً استمعت للموسيقى. كانت مختارات اختارتها بنفسها، أربع مقطوعات راقصة، واحدة تانغو، وأخرى ڤالس ثم تشارلستون وأخرى روك التي وبفضل دقّة الجهاز كانت تتكرّر إلى ما لا نهاية دون أيّ تدخّل لاحق. وقفت في الحوض، اغتسلت دون سرعة، خرجت، جففت نفسها وضعت عليها رداء حمّام وذهبت إلى القاعة. وصل غوستاف بعد غداء طويل مع بعض السويديين العابرين في براغ، وسألها أين إرِنا. فأجابته (خالطةً أنكليزيّتها البائسة بالتشيكية المبسطة بالنسبة إليه):

- لقد هتفت، لن تعود حتى الليل. كيف كان طعامك؟

- أكثر من اللازم.

- تناوَلْ مهضِّم - وصبّت مشروباً روحياً في كأسين.

- هذا شيء لا أرفضه أبداً - هتف غوستاف وشرب.

صفرت الأمُّ لحن الڤالس وحرّكت وركيها، ثمّ ودون أن تقول

شيئاً وضعت يديها على كتفي غوستاف وقامت معه بأربع خطوات راقصة.

- أراكِ في مزاج رائق - قال غوستاف.

«نعم» أجابت الأمّ بينما هي تستمرّ راقصة بحركاتها البارزة والمسرحية إلى حدّ جعلت غوستاف بين ضحكات فاحشة يُنفّذ بعض الخطوات مبالغاً في الإيماءات. استجاب للمشاركة في تلك المسرحية الساخرة، كي يُبرهن لها أنّه لا يريد أن يخرّب عليها دعابتها، وليذكّرها أيضاً بشيء من الفخفخة الخجولة بأنّه كان في أيّامه راقِصاً رائعاً وأنّه ما يزال. ثمّ ودون أن تتوقّف عن الرقص قادته الأمّ باتجاه المرآة الكبيرة المُعلّقة إلى الجدار؛ التفتا ونظرا إلى نفسيهما فيها.

أفلتته ثمّ ارتجلا، دون أن يتلامسا، حركةً أمام المرآة؛ فقام غوستاف بحركات كما لو أنّه يرقص بيديه ومثلها لم يتوقّف عن النظر إلى صورته ذاتها. عندئذٍ رأى يدَ الأمّ على عضوه.

المشهد التالي برهان قاطع على الخطيئة المغرقة في القدم للرجال، الذين حين يتمكنون من دور الغاوي لا يأخذون بالحسبان إلاّ النساء اللواتي يرغبون بهنّ؛ لا يخطر ببالهم ما إذا كانت هذه المرأة قبيحة أو عجوزاً أو ببساطة غريبة على خيالهم الإيروسي، أو يمكن أنها تُريد امتلاكهم. كانت مُضاجعةُ غوستاف لأمّ إرِنا بعيدة عن تفكيره، وهمية، وغير واقعية إلى حدّ أنّه ارتبك أمام المسألة فلم يدرِ ماذا يفعل: ردّة فعله الأولى كانت إبعادُ يدها عن عضوه، ومع ذلك لم يجرؤ، فهناك وصيّة ما زالت محفورة فيه منذ أنعم مراحل طفولته: لن يكون فظّاً مع النساء قط، وبالتالي يتابع الرقصَ وينظر مذعوراً إلى اليدِ بين ساقيه.

تختال الأم دون أن تُبعِدَ يدها عن عضوه ودون أن تحرّك قدميها أو تنقطع عن النظر إلى نفسها؛ بعدها تفتح دثار حمّامها

فيرى غوستاف ثدييها المكتنزين وتحتهما المثلث الأسود؛ يلاحظ بانزعاج أنّ عضوه ينتصب.

تبعد الأمُّ يدها لكن فقط كي تدسّها مباشرة داخل بنطلونه، فتمسك بالعضوِ العاري بين أصابعها، دون أن ترفع عينيها عن المرآة. العضو في كلّ مرّة أكثر انتصاباً وهي تصيح بذهول بصوتها المهتزّ الجهوري دون أن تكفّ عن الرقص ونظرتها ثابتة على المرآة: «آه، آه! لا أستطيع أن أصدّق، لا أستطيعُ أن أصدِّق !».

49

يُمارسُ جوزيف الحبّ وينظرُ إلى الساعة من حين إلى آخر بحذر: بقي أمامه ساعتان، ساعة ونصف، إن مساء هذا الحبّ مذهل، لا يريد أن يُضيِّع شيئاً، لا حركة، لا كلمة، لكنّ النهاية تقترب بلا هوادة، وعليه أن يراقب الزمن الذي يمضي.

هي أيضاً تُفكِّرُ بالزمن الذي يَقصر، هوسها يَصير عجولاً ومحموماً، تقفز من خيالٍ إلى آخر وتحدس أنَّ الوقت تأخّر جدّاً وهذا الهذيان يصل نهايته ومستقبلها ما يزال مقفراً. تُطلق بعض الفواحش، لكنّها تنطق بها باكية، ما عادت تستطيع أكثر، ثم تُجهِش، ما عادت تستطيع أكثر، فتهجر كلَّ حركةٍ وتبتعِدُ عنه.

تقولُ وهما مستلقيان الواحد بجانب الآخر:

ـ لا تذهب اليوم، ابقَ.

ـ لا أستطيع.

تمكث صامتةً برهةً طويلة ثمّ:

ـ متى سأعودُ وألقاك؟

لا يردُّ.

وبقرار مباغِت تخرجُ من السرير. ما عادت تبكي، تلتفت إليه منتصبةً، تقول له دون أدنى حدّ من العاطفية وبعدوانية مفاجئة: «قبّلني» !.

يستمرّ مستلقياً، متردّداً.

تنتظر بلا حراك من أعلاها إلى أسفلها وثقل حياة بلا مستقبل بكامله على كاهلها.

يذعن غير قادر على تحمّل نظرتها: ينهض، يقترب، يريح شفتيه على شفتيها.

تتذوّق قبلته، تزن درجة البرودة وتقول: «كم أنت سيّئ». ثمّ تلتفت إلى محفظتها الموجودة على الكومودينة. فتُخرجُ صحن سجائر صغير وتريه إيّاه. «هل تعرفه؟»

يأخذ صحن السجائر وينظرُ إليه.

ـ هل تعرفه ـ تُكرّرُ بجدّية صارمة.

لا يعرف ماذا يقول.

ـ انظر الكتابة.

إنّه اسم بار في براغ. لكنّه لا يعني له شيئاً فيسكت. تراقبُ حرجَهُ بعدمِ ثقةٍ يقظة، وتصبح في كلِّ مرّة أكثر عدوانية.

يشعر بالانزعاج تحت نظرتها، تعبر أمامه، في هذه اللحظة وبلمح البصر، صورةُ نافِذة في إفريزها إبريق فيه أزهار وبجانبه مصباح مضاء. لكنَّ الصورة تختفي ويرى من جديد عينيها العدوانيتين.

فهمتْ هي الأمرَ: لم ينسَ لقاءَه معها في البار فقط، بل في

الحقيقة ما هو أسوأ من ذلك: هو لا يعرف من تكون ، لا يعرفها، وفي الطائرة لم يكن يعرف مع من كان يتكلّم. وتنتبه على الفور: لم يتوجّه إليها قط باسمها.

ـ أنتَ لا تعرفُ من أنا.

ـ كيف ـ يقول هو بارتباك يائس.

تكلّمه مثل مُحقّق:

ـ إذن، قل لي ما اسمي!

يلزم الصمت.

ـ ما اسمي؟ قل لي ما اسمي!

ـ ما همّ الأسماء؟

ـ لم تنادِني قط باسمي! أنت لا تعرفني!

ـ ماذا تقولين!

ـ أين تعارفنا؟ من أنا؟

يريدها أن تهدأ، يأخذها من يدها، فترفضه:

ـ أنت لا تعرف من أنا! ودخلت في علاقة مع مجهولة! مارستَ الحبَّ مع مجهولةٍ قدّمت نفسها إليك! وتماديت في استغلال سوء الفهم! اعتبرتني عاهرة! لم أكن بالنسبة إليك أكثرَ من عاهرة، عاهرة مجهولة!

تسقط على السرير وتبكي.

يرى على الأرض قناني المشروبات الروحية الصغيرة فارغةً:

ـ شربت أكثر من اللازم. من الغباء الشرب إلى هذا الحدّ!

هي لا تُصغي إليه. يهتزّ جسدُها مرتعشاً وهي منكبّة على وجهها في السرير ، وليس في رأسها غير العزلة التي تنتظرُها.

ثمّ وكأنّها أسيرة التعب تكفّ عن البكاء وتستلقي على ظهرها تاركة ساقيها مفتوحتين دون أن تنتبه بإهمال.

يبقى جوزيف واقفاً بجانب السرير؛ ينظرُ إلى عضوها وكأنّه ينظر إلى الفراغ، وفجأة يرى بيت القرميد مع شجرة التنوب. ينظر إلى الساعة. يستطيع أن يبقى في الفندق نصف ساعةٍ أخرى. عليه أن يرتدي ملابسَهُ ويجد طريقة ليجبرها على أن تفعل مثله أيضاً.

50

حين يبتعِد عن جسدها يبقيان صامتين، فلا تُسمع غير المقطوعات الموسيقية الأربع التي كانت تتكرّر إلى ما لا نهاية. بعد برهةٍ طويلة تقول الأمُ بتشيكيتها ـ إنكليزيتها وصوت صافٍ يكادُ يكون وقوراً وكأنّها تقرأ بنودَ اتفاقٍ: «نحن، أنا وأنت، قويّان. We are strong. لكنّنا أيضاً طيّبان، good لن نؤذي أحداً. Nobody will know. لن يعرف أحدٌ شيئاً. تستطيع دائماً ومتى تشاء. لكن لن يُجبرك عليه أحدٌ. أنت معي حرٌّ With me you are free!».

قالتها هذه المرّة دون تلاعب ظاهريٍ وبنبرة جدّية تماماً. فأجاب غوستاف بدوره، وكان جدّياً تماماً: «نعم، أفهم ذلك».

«أنت معي حرّ»، تطنّ هذه الكلمات بداخله زمناً طويلاً. الحرّية: كان قد بحث عنها في ابنته ولم يعثر عليها. إرِنا استسلمت إليه بكلّ ثقل حياتها، بينما ما كان يريده هو أن يعيش دون ثقل، كان يبحث فيها عن الهروب فتنتصب أمامه مثل تحدٍّ، مثل عدوّة، مثل مأثرة عليه أن يشرع بها؛ مثل قاضٍ عليه أن يواجهه.

يرى جسد عشيقته الجديدة ينتصب أمامه على الديوان. كانت واقفة تعرض أمامه جسدها من الخلف، فخذيها الملفّعين بالخلايا الشحمية، فتسحره الخلايا الشحمية وكأنّها تعكس حيوية الجلد المتماوج، الذي يرتجّ، يتكلّم، يصدح، يهتزّ، ويعرض نفسه. وحين تنحني لتلتقط الدثارَ الساقِط على الأرض لا يستطيع أن يتمالك نفسه، وعارياً مضطجعاً على الديوان يُداعب وركيها المكوّرين بشكل رائع، يلمس ذلك اللحم الهائل وزائد الوفرة، الذي تواسيه وفرته السخيّة وتهدّئه. يغمره إحساس بالسلام: لأوّل مرّة في حياته يضعه الجنس بعيداً عن أيّ خطر، عن أيِّ صراعاتٍ ومآسٍ، بعيداً عن أيّ ملاحقة، وأيّ شعور بالذنب، عن القلق؛ ليس عليه أن يهتمّ بشيء، فالحبّ يهتمّ به، الحب الذي طالما رغب به ولم يملكه: الحب ـ الراحة؛ الحب ـ النسيان؛ الحبّ ـ الفرار؛ الحب ـ خلوة البال؛ الحبّ ـ التفاهة.

انسحبت الأم إلى الحمّام وبقي وحده: منذ لحظات كان يُفكّر أنّه ارتكب خطيئة هائلة؛ لكنّه يعرفُ الآن أنَّ ممارسته للحب ليس لها أيّ علاقة بالرذيلة، بأي انتهاك أو انحرافٍ جنسيّ، وأنّها كانت من أكثر ما في العالم طبيعية. معها، مع الأم، يشكّل ثنائياً، زوجاً طبيعياً، محتشماً، مبتذلاً بشكل لطيف، ثنائياً رزيناً، من شخصين كبيرين في السن. يصله من الحمّام صوت الماء، فيجلس على الديوان وينظر إلى الساعة. خلال ساعتين سيصل ابن عشيقته الجديدة جدّاً، إنه شاب يعجبه، وسيقدّمه هذه الليلة إلى أصدقائه في الشركة. طوال حياته كان مُحاطاً بالنساء! ما أمتع أن يملك أخيراً ابناً! يبتسم ويبدأ بالبحث عن ثيابه المبعثرة على الأرض.

إنّه جاهزٌ للحظةِ التي تخرج فيها الأمّ من الحمّام. وهي حالة تنطوي على بعض الوقار، وبالتالي غير مريحة، كما يحدث دائماً

بعد ممارسة الحبّ الأولى، حين يواجه العاشقان مستقبلاً ويجدان نفسيهما فجأة مُجبرين على أخذه على عاتقهما. الموسيقى ما تزال تسمع وفي هذه اللحظة الحرجة تنتقل من الروك إلى التانغو، كما لو أنّها تريد مساعدته. يستجيبان لهذه الدعوة، ينجدلان، ويستسلمان لهذا الدفق الرتيب، المتراخي من الأصوات. لايفكّران بشيء، يتركان نفسيهما يُحملان يُنقلان، ويرقصان ببطء وطويلاً، دون أي تمثيل هزليّ.

51

دام انتحابها طويلاً ثم توقّف كما لو بمعجزة، تبعهما تنفّس ثقيل: لقد نامت. هذا التبدل كان مُفاجئاً ومحزناً بشكل مُضحِك؛ كانت تنام بعمقٍ. لا يُقاوَم. لم تبدّل من وضعيتها فقد بقيت مستلقية على ظهرها مفتوحةَ الساقين.

بقي ينظر إلى عضوها، ذلك المكان المقتضب جدّاً، الذي باقتصاد مُدهش بالمكان يضمن أربع وظائف فائقة: الإثارة،، المجامعة، الإنجاب والتبوّل. تأمّل طويلاً هذا المكانَ البائس، المخيّب فغمره فجأة حزن هائل، هائل.

ركع بجانب السرير، منحنياً فوق رأسها، كانت تشخر برقّة، هذه المرأة كانت قريبة منه؛ ويستطيع أن يتصوّر أنه يبقى معها، ويهتمّ بها. في الطائرة كانا قد تواعدا ألاّ يُخبر أحدهما الآخر عن حياته الخاصّة، بحيث أنّه لم يكن يعرف عنها أيّ شيءٍ، لكنّ هناك ما بدا له واضحاً: هي عشقته، وكانت مستعدّة كي تذهب معه، كي تترك كلّ شيء، كي تبدأ من جديد. كان يعرف أنّ من الممكن أن تُساعده. أمامه الفرصة الأخيرة، لا شكّ في ذلك، ليبرهن عن أنّه

مفيد، ليُساعِد أحداً، ليعثر على أخت بين حشد الغرباء الذي يزدحم بهم الكوكب.

بدأ يرتدي ملابسه، بحذر، بصمتٍ كيلا يوقظها.

52

كانت كما في مساء كلّ أحد وحيدة في محترفها محترف العالِمة الفقيرة المتواضع. كانت تروح وتغدو في الغرفة وتأكل ما أكلته في الظهيرة: جبناً، زبدة، خبزاً وبيرة. وبما أنّها نباتية فقد كانت محكومة بهذه الرتابة الغذائية. منذ وجودها في مستشفى الجبل، واللحم يُذكّرها بأن جسدها يمكن أن يُقطّع ويؤكل تماماً مثل لحم العجل. طبعاً الناس لا يأكلون لحم الإنسان، فهذا سيرعبها. لكنَّ هذا الرعب يؤكّد أنّ الكائن البشريّ يمكن أن يُؤكَلَ، يُمضَغَ، يُلتَهَمَ ويتحوّل إلى فضلات. وميلادا تعرف أنّ الرعب من أن يؤكَل المرء ليس إلاّ نتيجة رعب آخر أعمّ موجودٍ في أعمق أعماق الحياة: الرعب من أن يكون جسداً، أن يوجد في هيئة جسد.

انتهت من عشائها وذهبت إلى الحمّام لتغسلَ يديها. ثمّ رفعت رأسها فرأت نفسها في المرآة فوق المغسلة. كانت نظرة مختلفة تماماً عن تلك، التي راقبت جمالها منذ قليل في الواجهة. كانت النظرة هذه المرّة كثيفة، رفعت ببطءٍ الشعر الذي كان يؤطّر وجنتيها. نظرت إلى نفسها كأنّها منوّمة طويلاً، طويلاً جدّاً، ثمّ تركت الشعر يسقط. سوّته من جديد حول وجهها وعادت إلى الغرفة.

في الجامعة أغوتها أحلام السفر هناك إلى نجوم أخرى. كم من السعادة سيفوتها بالسفر بعيداً عن الكون، باتجاه مكان ما

حيث تتبدّى الحياةُ بطريقة أخرى ولا تحتاج لجسد! لكن وعلى الرغم من كلّ صواريخ الإنسان فإنّه لن يُسافر أبداً بعيداً جدّاً في الكون. قِصَرُ حياته يحوّل السماء إلى سدادة سوداء سيصطدم بها رأسه دائماً ويسقط على الأرض، حيث كلّ من يعيش يأكل وربّما يؤكَل.

فاقة وكبرياء. «على جوادِ الموتُ وطاووس». تمكث واقفة أمام النافذة وتنظر إلى السماء. سماء بلا نجوم، سدادة سوداء.

53

وضع كلّ شيء في الحقيبة وألقى نظرة حوله كيلا ينسى شيئاً. ثمّ جلس إلى الطاولة، وعلى ورقة عليها عنوان الفندق كتب: «لتنامي نوماً هنيئاً. الغرفة لك حتى ظهيرة الغد...» كان بودّه أن يقول لها شيئاً أكثر رقّة، لكنّه رفض أن يترك لها أيّ كلمة زائفة. وأخيراً أضاف: «... يا أختاه»

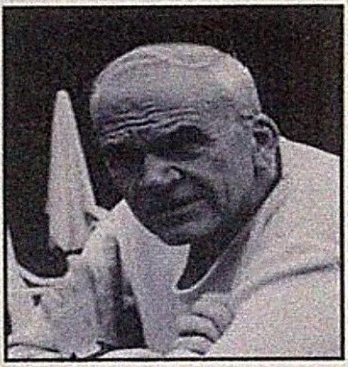
ترك الورقة على السجادة بجانب السرير كي تراها حتماً.

بحث عن إعلان «يُرجى عدم الإزعاج. Don’t disturb». عند الخروج التفت إليها من جديد، كانت ما تزال نائمة، في الممر علّق الإعلان إلى قبضة الباب وأغلقه بصمت.

في الممر كان يسمعهم يتكلّمون في كلّ مكان بتشيكية رتيبة ومملّة بشكل كريه، فصارت مرّة أخرى لغةً مجهولة.

حين دفع الحساب قال: «هناك سيّدة بقيت في غرفتي. ستذهب غداً». ولكي يطمئن إلى أنّ أحداً لن ينظر إليها نظرةَ سوءٍ ترك أمام عاملة الاستقبال ورقة من فئة الخمسمئة كورون.

نادى سيّارة أجرة وذهب إلى المطار. كان الوقتُ قد صار ليلاً. أقلعت الطائرة باتجاه سماء سوداء، ثم دخلت بين الغيوم. انشقّت السماء بعد دقائق وديعةً، حميمةً، مزروعةً بالنجوم. حين نظر من النافذة رأى على أرضيّة هذه السماء سياجاً خشبياً وأمامه بيت من قرميد وشجرة تنوب رشيقة مثل ذراعٍ مرفوع.



الجهل

رجلٌ وامرأة يلتقيان مُصادفة عند العودة إلى مسقط رأسهما، الذي هاجرا منه قبل عشرين عاماً. ترى هل باستطاعتهما أن يشرعا من جديد بقصّة حبّ ماكادت تبدأ آنذاك في بلدهما؟ المسألة أنّ ذكرياتهما ما عادت تتشابه بعد هذا الغياب. «إذ ماذا تستطيع ذاكرتُنا المسكينة أن تفعل واقِعياً؟ فهي ليست قادرة على أن تحتجز من الماضي إلا جزءاً يسيراً، دون أن يدري أحدٌ لماذا هذا الجزء وليس غيره». نحن نعيشُ غارقين في النسيان إلى أعلى رؤوسنا ولا نريد أن نعرف ذلك. وحدهم من يعودون، مثلما عاد عوليس إلى مسقط رأسه إيثاكا، يستطيعون أن يروا، مذهولين مبهورين، إلهةَ الجهل عن قرب.

20